امرؤ القيس بن حُجْر: رحلته إلى الشرق أو إلى الغرب؟ "القسم الأول"

د. ليلى توفيق العمري
الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية
الجامعة الهاشمية

يذهب بعض الجغرافيين(١) إلى أن رحلة امرىء القيس بن جُحْر – التي رافقه فيها عمرو بن قَمِيئة – كانت إلى الهند ولم تكن إلى القسطنطينية عاصمة بلاد الروم، ويستدلّون على زعمهم هذا من تحديدهم موقع بعض المواضع التي وردت في شعر ابن قميئة رفيقه في السفر.

وللوصول إلى الحقيقة لا بدَّ من معرفة الطريق الذي سلكه امرؤ القيس في هذه الرحلة، والذي انتهى به إلى الموضع الذي حَطَّ فيه قدميه، ومن ثَمَّ كانت له فيه أخبار وأشعار ونهاية حياة. هذه الحقيقة – التي تنازع جوهرَها وتجاذب أطرافَها ثلاثةُ محاور يأخذ بعضها برقاب بعض، يشدّه حيناً، ويؤازره حيناً آخر – تشكّل الأساس الذي يقوم عليه هذا البحث.

فأوّل هذه المحاور: يعتمد على ما ذكرته كتب الأدب العام بخاصة، وكتب الأخبار والتاريخ عن سبب رحلة امرىء القيس، والديار التي مرَّ بها في طريقه إلى قيصر ملك الروم.

وثانيها: يحتجّ بما يزوّدنا به ديوانا امرىء القيس وعمرو بن قميئة من أشعار تبيّن بعض المواضع التي سلكاها وجابا خلالها أو مرَّا بها، بحيث تقطع في محتواها ومضمونها بمسيرهما إلى ملك الروم، وكذلك بما تزوّدنا به كتب الأدب العام والتاريخ والطبقات والتراجم من أحوال وأخبار مرافقة لشعر هذين الشاعرين الذي قيل في هذه الرحلة، تنتهي بنا إلى الغاية التي قصدنا إثباتها، وأردنا الوصول إليها.

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في موضعه.

وثالثها: يقوم على ما ورد في كتب الجغرافيين من أقوال تشير إلى اختلافهم، أو اتفاقهم في تعيين موقع بعض المواضع التي سلكها امرؤ القيس وعمرو بن قميئة في رحلتهما إلى قيصر، والخروج منها برأي واضح قطع العلماء فيه القول، وفصلوا فيه الخلاف بينهم.

* * *

(١)

يذكر صاحب الأغاني[1] في خبر يردّه إلى ابن الكلبي أن حُجْراً لم يكن راضياً عن ابنه امرىء القيس، فطرده من عنده "وآلى ألاَّ يقيم معه أَنَفَةً من قوله الشعر، وكانت الملوك تأنف من ذلك، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاطٌ من شُذَّاذ العرب من طيِّىء وكلب وبَكر بن وائل؛ فإذا صادف غديراً أو روضةً أو موضع صيد، أقام فذبح لمن معه في كل يوم؛ وخرج إلى الصيد فتصيَّد، ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغنَّته قِيانُه، ولا يزال كذلك حتى يَنْفَدَ ماءُ ذلك الغدير، ثم ينتقل عنه إلى غيره". واستمرّ امرؤ القيس في هذه الحياة العابثة

(١) ٩: ٨٧، وانظر الكامل في التاريخ ١: ٥١٥-٥١٦، نشوة الطرب ١: ٢٥٢، قراءة ثانية في شعر امرىء القيس: ٩٧، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨-١٠٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٢، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠.
وقد تحدّث عن رحلة امرىء القيس إلى قيصر عدد من الباحثين والمؤلّفين العرب المحدثين، في مؤلّفات ودراسات متخصّصة عرضت لحياته وشعره؛ منها: امرؤ القيس لسليم الجندي: ١٢-٢٥، امرؤ القيس حياته وشعره: ٧٥-١٠٣، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٠-١١، ١٦، ١٧-٢٢، امرؤ القيس الملك الضّلّيل: ٢١-٣٥، ٤١-٤٤، امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٨٤-٣٩٤، امرؤ القيس يقف على المسرح: ٣٨-٤٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧١-٢٩٤، الشوامخ امرؤ القيس: ١٦-٢١، علاء الدين ومسرحيته الشعرية: امرؤ القيس بن حُجْر: ١٧-٢٢، الملك الضّلّيل امرؤ القيس: ١٤٥-١٥٠.

حتى "أتاه خبر أبيه ومقتله[١] وهو بِدَمُّون[٢] من أرض اليمن، أتاه به رجلٌ من بني عِجل يقال له عامر الأعور أخو الوَصَّاف. فلما أتاه بذلك قال[٣]:

تَطَاوَلَ الليلُ عَلَى دَمُّونْ دَمُّونُ إنَّا معشرٌ يمانونْ

وإنَّنا لأهْلِها مُحِبُّونْ

ثم قال: ضَيَّعني صغيراً وحمَّلني دَمَه كبيراً، لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكرَ غداً، اليومَ خمرٌ، وغداً أمر، فذهبتْ مثلاً. ثم قال[٤]:

خليليَّ لا في اليومِ مَصْحًى لِشارِبٍ ولا في غَدٍ إذْ ذَاكَ ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً، فلم صَحَا آلَى ألاَّ يأكلَ لحماً، ولا يشربَ خمراً، ولا يَدَّهِنَ بدُهن، ولا يصيبَ امرأةً، ولا يغسِلَ رأسه من جنابة، حتى يُدرك بثأره"[١].

---

(١) انظر خبر مقتله في الشعر والشعراء: ٥٠-٥١، ٥٧-٥٨، الأغاني ٩: ٨٢-٨٦، الكامل في التاريخ ١: ٥١٤-٥١٥، نشوة الطرب ١: ٢٤٦-٢٤٨، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٤-٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٢-٥٧٣، امرؤ القيس حياته وشعره: ٤٤-٤٩، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ٩-١٠، امرؤ القيس الملك الضليل: ٢١-٢٣، امرؤ القيس يقف على المسرح: ٣٩، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧١، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠.

(٢) دَمُّون: من حصون حَضْرَمَوْت لحمْيَر، وفي رواية أن دَمُّون: قُرًى للصَّدِفِ بحضرموت، انظر معجم ما استعجم: ٥٥٧. وفي نشوة الطرب ١: ٢٤٨ أن دمُّون من أرض كندة.

(٣) انظر ديوان امرىء القيس: ٣٤١، ويروى: "عَلَيْنَا دَمُّونْ" و "لأَهْلِنا".

(٤) انظر المصدر السابق: ٣٤٢، ويروى: "خليليَّ ما في الدار" و "إذْ كان" و "مَشْرَبُ".

وفي رواية أخرى أن حُجْراً طرد ابنه امرأ القيس "لِمَا صَنَع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقاً، فطلبها زماناً فلم يصل إليها، وكان يطلب منها غِرَّة حتى كان منها يومَ الغدير بدَارةِ جُلْجُلٍ(٢) ما كان، فقال(٣):

* قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ *"

فلما بلغ ذلك حُجْراً غضب، وأَوْصَى مولى له يقال له ربيعة بقتله، ثم طرده(٤)، وقيل: إنما طرده لأنه تغزَّل بامرأة من نساء أبيه(٥).

فلما طرده والده، صار يتجول في الآفاق يجمع إليه طائفة من الصعاليك والذؤبان والشذاذ من أحياء طيِّيء وكلب وبكر، وأخذ يتنقّل بهم

---

(١) الأغاني ٩: ٨٧–٨٨، وانظر الشعر والشعراء: ٥٢، وفي ص: ٥٨ ذكر ابن قتيبة أنه عندما قتل عِلْباء بن الحارث الأسدي حُجْراً، وأفلتَ امرؤ القيس يومئذٍ، حلف لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدركَ ثأره ببني أسد، الكامل في التاريخ ١: ٥١٦، نشوة الطرب ١:٢٤٨، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٢–٢٥٣، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧٠–١٧١.

(٢) انظر مغامرته بدارةِ جلجل في ديوانه: ١٠، الشعر والشعراء: ٦٥–٦٦. ودارة جُلْجُل: موضع بديار كِندة يقال له الحِمَى، وقيل: دارة جُلْجُل عند عين كندة، انظر معجم ما استعجم: ٣٨٩.

(٣) انظر ديوان امرىء القيس: ٨، وتمامه: "* بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ وَحَوْمَلِ *".

(٤) الشعر والشعراء: ٥١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١، تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ١٥٥–١٥٦، وكان يرى أن هذه القصة مخترعة على امرىء القيس، على غرار ما يحكى عن مشاهير الأبطال في صغرهم.

(٥) خزانة الأدب ١: ٣٧٥، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ١١ حاشية رقم (١) قال السندوبي: "وزعم بعض الرواة أن أباه طرده لأنه كان يتعشَّق امرأة أبيه المسمَّاة هرّ"، امرؤ القيس حياته وشعره: ٦٠–٦١، امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٤.

في منازل العرب، ويغير بهم على أحيائها، ويقاسمهم ما تناله أيديهم أو ما يقع لهم من الصيد، ثم يذهب بهم إلى المناهل والغدران والرياض، يذبح لهم، ويؤاكلهم، ويعاقرهم الخمر، وينشدهم الشعر، وتغنّيهم قيانه، حتى جاءه خبر مقتل والده، فنبذ هذه الحياة وصمّم على الأخذ بالثأر من قَتَلة أبيه(١).

ولم يزل امرؤ القيس مع صعاليك العرب حتى أتاه نبأ مقتل والده وهو بدمُّون من أرض اليمن على رواية ابن الكلبي، وفي رواية أخرى تنسب إلى الهيثم بن عدي "أن امرأ القيس لمَّا قُتِل أبوه كان غلاماً قد ترعرع، وكان في بني حَنظلة مقيماً لأن ظِئْرَه كانت امرأةً منهم. فلما بلغه ذلك قال(٢):

يا لَهْفَ هندٍ إذْ خَطِئْنَ كاهلاَ ... القاتِلينَ المَلِكَ الحُلاحِلاَ

تاللهِ لا يَذْهَبُ شيخي باطِلاَ ... يا خيرَ شيخ حَسَباً ونائِلا

وخيرَهُمْ – قد عَلِمُوا– فواضِلا ... يَحمِلْننا والأَسَلَ النَّواهِلا

وحيَّ صَعبٍ والوَشِيجَ الذَّابِلا ... مُسْتَثْفِراتٍ بالحَصَى جَوَافِلا"(٣)

وقيل: إن امرأ القيس حين نعِي إليه أبوه وهو بدمُّون من حضرموت قال(٤):

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٥، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ١٢.

(٢) الرجز في ديوان امرىء القيس: ١٣٤–١٣٥– باستثناء البيتين الخامس والسابع، وهما في ص: ٤١٨ (تحقيق رواية الديوان قصائده وأبياته)، الأول زاده ابن النحاس والثاني زاده السكري – باختلاف في ترتيب الأبيات، ويروى: "واللهِ" و "خيرَ مَعَدٍّ حسباً" و "مُسْتَفْرِمَاتِ بالحَصَى".

(٣) الأغاني ٩: ٨٨–٨٩.

(٤) ديوان امرىء القيس: ٣٤٣، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ٢٠٥–٢٠٦، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣:٢٥٥، وفيه يروي جواد علي هذا الشعر في الخبر السابق الذي ينسب إلى

أتَـاني وأصـحابي علـى رأْسِ صَـيْلَعٍ[1] حـديثٌ أَطَـارَ النَّـوْمَ عَنِّـي فأَنْعَمَـا
فقلـتُ لِعِجْلـيٍّ بعيـدٍ مآبُـهُ: أَبِـنْ لـي وبَـيِّنْ لـي الحـديثَ المُجَمْجَما
فقـال: أَبيـتَ اللعْـنَ، عَمْـرٌو وكاهِـلٌ أباحَـا حِمَـى حُجْـرٍ فأَصْـبَحَ مُسْـلَمَا

ويفهم من هذه الأبيات أن امرأ القيس كان في "صيلع" عندما بلغه نبأ مقتل والده، أتاه به رجل اسمه عِجْل، ويُعْرف بعامر الأعور[2]، ويذكر ياقوت الحموي[3] أن في "صيلع" ورد الخبر على امرىء القيس بمقتل أبيه حُجْر.

وفي خبر آخر يفيد أنه نزل في "بني دارم"، وبقي عندهم حتى قتل عمه شرحبيل[4]، وفي رواية مرجعها الهيثم بن عدي أيضاً أنه كان مع والده حُجْر – في جمع من قومه كندة– عندما هاجمته بنو أسد وقتلته، وأنه هرب على فرس له شقراء، وتمكّن من النجاة[5].

ويروي ابن السكيت أنه لمَّا طعن الأسديُّ حُجْراً ولم يجهز عليه، أوصى ودفع كتابَه إلى رجل، وطلب منه أن يستقري أولاده واحداً واحداً حتى يأتي امرأ القيس، ففعل، فلما أتى امرأ القيس وجده "مع نديم له يشرب الخمر ويُلاعبه بالنَّرد؛ فقال له: قُتِلَ حُجْر. فلم يلتفت إلى قوله؛ وأمسك نديمه. فقال له امرؤ القيس: اضربْ فضرب. حتى إذا فرغَ قال: ما كنتُ لأفسد عليك دَسْتك[6]. ثم سأل الرسولَ عن أمر أبيه كُلِّه فأَخبره. فقال: الخمرُ عليَّ والنساء حرامٌ حتى أقتُل من بني أسد مائة وأجُزَّ نواصيَ مائة. وفي ذلك يقول[7]:

الهيثم بن عدي، والذي ذكر فيه أن امرأ القيس كان مقيماً في بني حنظلة لمَّا قُتِل أبوه، العقد الثمين: ١٠٦.

(١) صَيْلَع: موضع من اليمن كثير الوحش والظباء. انظر معجم ما استعجم: ٨٤٨.
(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣ :٢٥٥.
(٣) معجم البلدان ٣: ٤٩٨.
(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣ :٢٥٥، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٤١-٤٢.
(٥) الأغاني ٩: ٨٥، وانظر ما ورد في الشعر والشعراء: ٥٨ ما يقرب من ذلك.
(٦) الدست: المجلس، وهي كلمة فارسية.
(٧) انظر ديوان امرىء القيس (تحقيق رواية الديوان قصائده وأبياته): ٤٦٥.

أرِقتُ ولم يأرَقْ لِمَا بيَ نافعُ   وهاج لي الشوقَ الهمومُ الروادعُ"(١)

وتناقض رواية ابن السكيت رواية أوثق(٢) منها تنسب إلى الهيثم بن عدي، وهي الرواية الوحيدة – من بين روايات أربع ذكرها أبو الفرج– التي تقرّر أن امرأ القيس شهد لقاء كندة مع بني أسد، وأنه هرب على فرس له شقراء، وأعجزهم اللحاق به. ونستطيع أن نوفّق بين هذه الروايات جميعها، إذا ذهبنا في التأويل إلى أنه فرَّ من المعركة بعد أن هُزم قومه، وقبل أن يقتل أبوه، وأن الخبر جاءه هارباً في دَمُّون(٣).

ويذكر ابن الكلبي ويعقوب بن السكيت أن امرأ القيس ارتحل – بعد أن أتاه نبأ مقتل والده– حتى نزل بكراً وتغلب(٤)، فسألهم النصر على بني أسد، فبعث

---

(٢) الأغاني ٩: ٨٧، وانظر الكامل في التاريخ ١: ٥١٥. يذكر الرواة منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه قَدِم على امرىء القيس رجال من قبائل بني أسد بعد مقتل أبيه حجر –وقبل تنقّله في قبائل العرب مستنجداً بها للثأر منهم – ليعتذروا إليه وليسووا قضية قتل والده، فرفض إلا الانتقام من بني أسد قائلاً لهم: " لقد علمت العربُ أنْ لا كُفْءَ لحُجْر في دم، وإني لن أعتاض به جملاً أو ناقةً فأكتسبَ بذلك سُبَّةَ الأبد وفَتَّ العَضُد. وأما النَّظِرة (المهلة) فقد أوجبتْها الأجِنَّةُ في بطون أُمهاتها، ولن أكون لعَطَبها سبباً، وستعرفون طلائع كندةَ من بعد ذلك، تحمل القلوب حَنَقاً وفوق الأسِنَّة عَلَقاً (الدم)".
وفي رواية أخرى تنسب إلى أبي عبيدة في هذا المعنى تقول: إن بني أسد اجتمعت " بعد قتلهم حُجْر بن عمرو، والدَ امرىء القيس، إلى امرىء القيس ابنه على أن يعطوه ألف بعير دية أبيه؛ أو يُقِيدوه من أي رجل شاء من بني أسد، أو يُمهلَهم حولاً؛ فقال: أما الدية فما ظننت أنكم تعرضونها على مثلي، وأما القَودُ: فلو قِيد إليَّ ألفٌ من بني أسد ما رَضيتُهم ولا رأيتهم كفؤاً لحُجْر، وأما النَّظِرة فلكم، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان، أُحكِّم فيكم ظُبَا السيوف وشَبَا الأسنة، حتى أُشْفي نفسي وأنالَ ثأري". الأغاني ٩: ١٠٣-١٠٥، ٢٢: ٨٢ على الترتيب، وانظر ديوان عبيد: ١٣٥، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٨.
(٣) انظر حديث الطاهر أحمد مكي عنها في كتابه: امرؤ القيس حياته وشعره: ٤٧-٤٩، ٧٥.
(٤) انظر المرجع السابق: ٧٥.
(٤) من الأخبار التي تحدّث بها الرواة قبل نزول امرىء القيس على بَكْر وتغلب – فيما ذكره المفضل– أن ثعلبة بن مالك من بني عمرو بن معاوية من كندة نازعه على عرش أبيه بعد مقتله؛ قالوا: إن امرأ القيس وثعلبة أصابا المُلْك بعد قَتْل حجر، فنفِسَ ثعلبةُ على امرىء القيس منزلتَه من نجد،

العيونَ على بني أسد فَنَذِروا[١] بالعيون ولجأوا إلى بني كنانة، ثم علموا أن امرأ القيس يتعقّبهم، فارتحلوا عن بني كنانة ليلاً دون أن يشعروا، فلما وصل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب إلى بني كنانة ظانّاً بني أسد بينهم، نادى: يا لِثارات الملك! يا لِثارات الهُمام! فأخبروه أن بني أسد قد تركوهم وارتحلوا عنهم، فقال في ذلك[٢]:

أَلا يـا لَهْـفَ هِنْـدٍ إثْـرَ قَـوْمٍ   هُـمُ كـانوا الشِّـفاءَ فلـم يُصـابوا
وقـاهُمْ جَـدُّهُمْ بِبَنِـي أَبِـيهِمْ   وبالأَشْـقَيْنَ مـا كـان العِقـابُ
وأَفْلَـتَهُنَّ عِلبـاءٌ جَريضـاً   ولـو أَدْرَكْنَـه صَـفِرَ الوِطـابُ

فأقبل يقود الخيل إليه، وهو يريد قتاله، فبلغ ذلك امرأ القيس، فخرج بأصحابه ليلقاه بين الأَبْرَقَيْن، حتى إذا كان قريباً منه قال لجنده: اكمنُوا في غَيابة من الأرض (أي مُنْهَبِط منها) فإني متقدم على فرسي حتى أبرُز للقوم لعلّي أغتَرُّهم (آتيهم على غِرَّة)، فأَطْعُن بعضَهم وهم غارّون (غافلون)، فإنهم سيركبون في أثري ويعجلون عن أداتهم، فإذا مرُّوا بكم متفرّقين – وقد انهزمتُ لهم، وانقطع نظامُهم– فاحملوا عليهم حملة رجل واحد، فانكمنوا لهم، وخرجوا وخرج امرؤ القيس على فرسه، ومعه سيفُه ورمحه، وقد لبس دِرْعَه تحت ثيابه حتى مرَّ على راعي غنم، فسأله عن معسكر ثعلبة بن مالك، فدلَّه عليه، فسار نحوه تعدُو به فرسه، حتى خالط القوم، فلما كان في طرف من القوم طعن رجلاً منهم، ثم انهزم، فخرجوا في أثره، تعدو بهم خيلُهم، ليس عليهم كثير أداة، حتى حاذوْا أصحاب امرىء القيس وهم لا يشعرون بالمكيدة التي دبَّرها لهم هو وأصحابه. فلما حاذوْهم وفيهم ثعلبة بن مالك –وهو يومئذ مُعْلِم (أي أعلم مكانه في الحرب بعلامة أعلمها)– حملوا عليه حملة رجل واحد، وكرَّ امرؤ القيس، فحمل عليه وطعنه طعنة شديدة فأذراه عن فرسه، وانهزم أصحابه، وأسروا منهم كثيرين، وأسر ثعلبة، ثم قتله امرؤ القيس صبراً؛ وفي ذلك يقول قصيدته التي مطلعها:

أحارِ بنَ عَمْرٍو كأَنِّي خَمِرْ   ويَعْدُو على المَرْءِ ما يأْتَمِرْ

ديوان امرىء القيس: ١٥٣–١٦٧، وانظر أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧٥–٢٧٦.

(١) نذروا: علموا فحذروا.

(٢) انظر ديوان امرىء القيس: ١٣٨، العقد الثمين: ٦٩.

وتتبّعهم امرؤ القيس حتى أدركهم فقاتلهم فكثرت الجرحى والقتلى فيهم، وحجز الليل بينهم، وهربت بنو أسد، فلما أصبحت بكر وتغلبُ أَبَوْا أن يتَّبعوهم، وقالوا له: "قد أصبتَ ثأرَك. قال: والله، ما فعلتُ ولا أصبتُ من بني كاهل ولا من غيرهم من بني أسد أحداً. قالوا: بَلَى، ولكنك رجل مشؤوم، وكرهوا قتالهم بني كنانة، وانصرفوا عنه، ومضى هارباً لوجهه حتى لحق بحميرَ"(١).

---

(١) الأغاني ٩: ٩٠-٩٢، وانظر ٢٢: ١١٨، الشعر والشعراء: ٥٢، وفيه ذكر ابن قتيبة أنه استجاش بكر بن وائل، وذكر في ص: ٥٨-٥٩ أنه عندما قُتِل حُجْر أتى امرؤ القيس ذا جَدَنٍ الحميريّ "فاستمدّه فأمدّه، وبلغ الخبرُ بني أسد فانتقلوا عن منازلهم، فنزلوا على قوم من بني كنانةَ بن خُزَيمةَ، والكنانيون لا يعلمون بمسيرِ امرىء القيس إليهم، فطرقهم في جند عظيم، فأغار على الكنانيين وقتل منهم، وهو يظنُّ أنهم بنو أسد، ثم تبيَّن أنهم ليسوا هم، فقال:

ألا يا لهفَ نفسي إثرَ قومٍ .... (الأبيات)

ثم تبع بني أسد فأدركهم وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وقال:

قُولاَ لِدُودَانَ: عبيدِ العصا .... (الأبيات الآتية)

ثم إن المنذر بن ماء السماء غزا كندةَ فأصاب منهم، وأسر اثني عشر فتًى من ملوكهم، فأمر بهم فقُتِلوا بمكان بين الحيرة والكوفة، يقال له جَفْرُ الأملاك، وكان امرؤ القيس يومئذ معهم، فهربَ حتى لجأ إلى سَعْد بن الضِّباب الإيادي، سيّد إياد، فأجاره...". الكامل في التاريخ ١: ٥١٦-٥١٧، نشوة الطرب ١: ٢٤٨-٢٥٠، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، وأشار إلى أن امرأ القيس سار إلى المنذر بن امرىء القيس ملك الحيرة بعد أن فاته بنو أسد، وأوقع في كنانة، ثم سار في اتباع بني أسد، ولم يظفر منهم بشيء، و ص: ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨-٣٨٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

ويشير ابن قتيبة[١] إلى أن امرأ القيس سار إلى بني أسد عندما لجأوا إلى بني كنانة، فأوقع ببني كنانة، ونجتْ بنو كاهل من بني أسد؛ فقال[٢]:

يا لَهْفَ نَفْسِي إذْ خَطِئْنَ كاهِلا   القاتِلِينَ المَلِكَ الحُلاحِلا
تاللهِ لا يَذْهَبُ شيخي باطِلا

وذكر امرؤ القيس في شعره أنه ظفر بهم، فتأبَّى عليه ذلك الشعراء؛ قال عَبيد[٣]:

يـــــا ذَا المُخَوِّفُنــــــا بِقَتْـــــ ------- ــــلِ أبِيـــــهِ إذلالاً وَحَيْنَـــــا
أَزَعَمْــــتَ أَنَّـــــك قـــــد قَتَلْــــ ------- ــــتَ سَـــرَاتنا كَـــذِباً وَمَيْنـــا

وفي رواية يرجعها الإخباريون إلى ابن السكيت: "أن امرأ القيس لما أقبل من الحرب على فرسه الشَّقراء لجأ إلى ابن عمته عمرو بن المُنذر – وأُمّه هند بنت عمرو بن حُجْر بن آكل المُرار، وذلك بعد قتل أبيه وأعمامه وتَفَرُّقِ مُلكِ أهل بيته، وكان عمرو يومئذٍ خليفةً لأبيه المنذر ببَقَّة وهي بين الأنبار وهِيتَ– فمدحه وذكر صِهرَه ورحمه وأنه قد تعلق بحباله ولجأ إليه، فأجاره، ومكث عنده زماناً. ثم بلغ المنذرَ[٤] مكانُه عنده فطلبه، وأنذره عمرو فهرب حتى أتى حمير"[٥].

---

(١) الشعر والشعراء: ٥٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٩.

(٢) انظر ديوان امرىء القيس: ١٣٤ باختلاف في ترتيب الأبيات، وتروى: " لَهْفَ هِنْدٍ" و "والله". وفي خبر الأبيات: أنه قالها حين بلغه أن بني أسد قتلت أباه.

(٣) الشعر والشعراء: ٥٢، وانظر: ١٨٧، والبيتان في ديوان عبيد: ١٣٦، تاريخ اليعقوبي ١: ٢١٨، امرؤ القيس حياته وشعره: ٧٨–٧٩، والخبر مع البيتين في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦١.

(٤) ابن ماء السماء.

(٥) الأغاني ٩: ٩٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦.

ويقول ابن الكلبي والهيثم بن عَدي وعمر بن شبَّة وابن قتيبة[1]: إنَّ امرأ القيس خرج من فوره –بعد امتناع بكر بن وائل وتغلب من اتباع بني أسد– إلى اليمن " فاستنصر أزدَ شَنُوءةَ؛ فأَبَوْا أن ينصروه وقالوا: إخواننا وجيرانُنا. فنزل بقَيْلٍ يُدْعى مَرْثَد الخير بنَ ذي جَدَن الحميريّ، وكانت بينهما قَرابة، فاستنصره واستمدّه على بني أسد؛ فأمدّه بخمسمائة رجل من حِميَر؛ ومات مَرثد قبل رحيل امرىء القيس بهم، وقام بالمملكة بعده رجلٌ من حمير يقال له قَرْمَل ابن الحُمَيْم وكانت أمّه سوداء، فردّد امرأ القيس وطوَّل عليه حتى همّ بالانصراف؛ وقال[2]:

وإذْ نَحْن نَدْعُو مَرْثَدَ الخَيْرِ رَبَّنا وإذْ نَحْنُ لا نُدْعَى عَبيداً لِقَرْمَلِ

---

(١) الأغاني ٩: ٩٢–٩٣، وانظر الأصنام: ٥٩–٦٠، معجم البلدان ٢: ٤٣٩، الكامل في التاريخ ١:٥١٧، نشوة الطرب ١:٢٥٠، وذكر ابن سعيد أن امرأ القيس انصرف إلى حمير فنزل بقبيلة تدعى مَرْثَد الخير من ذي جَدَن، فاستنصرهم فأمدُّوه بخمسمائة رجل، ولم يذكر في هذا الخبر موت مرثد وقيام قرمل بن الحميم بالمملكة بعده، وأشار ابن خلدون (تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣) إلى أنه بعد أن رجعت بكر وتغلب عن امرىء القيس سار إلى مُؤثِرِ الخير بن ذي جدن من ملوك حمير صريخاً بنصره بخمسمائة رجل من حمير بجمع من العرب سواهم، واجتزأ ابن كثير (البداية والنهاية ١: ٢٠٤) هذا الخبر على استقسام امرىء القيس عند ذي الخلصة، وعلى إغارته على بني أسد وقتلهم قتلاً ذريعاً، بلوغ الأرب ٢:٢٠٧، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٦–٢٥٧، المستشرقون والشعر الجاهلي: ١٠١، ١٠٦.

(٢) انظر ديوان امرىء القيس: ٣٤٢.

فأنفذَ له ذلك الجيشَ؛ وتبِعه شُذَّاذٌ من العرب، واستأجر من قبائل العرب رجالاً، فسار بهم إلى بني أسد. ومرَّ بتَبَالةَ[١] وبها صنم للعرب تعظِّمه يقال له ذو الخَلَصة[٢]؛ فاستقسم[٣] عنده بقِداحه وهي ثلاثة: الآمر والناهي والمتربّص، فأجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي، ثم أجالها فخرج الناهي؛ فجمعها وكسرها وضرب بها وجهَ الصنم وقال: مَصِصْتَ بَظْرَ أُمّك! لو أبوك قُتِل ما عُقتَني. ثم خرج فظفِر ببني أسد".

فلما أوقع بهم، وأدرك ثأر أبيه فيهم؛ قال[٤]:

قُـــولاَ لِـــدُودَانَ[٥] عبيـــدِ العَصَـــا	مـــا غَـــرَّكُمْ بالأَسَـــدِ الباسِـــلِ!
قـد قَـرَّتِ العَيْنـانِ مـن مالِـكٍ[٥]	ومن بَنـي عَمْرٍو[٥] ومِنْ كاهِلِ[٥]
ومـــن بَنـــي غَـــنْم بـــنِ دُودانَ[٥] إذْ	نَقْـــذِفُ أعلاهـــمْ علـــى السَّـــافِلِ

....

حَلَّـــتْ لـــيَ الخَمْـــرُ وكنـــتُ امْـــرَأً	عـــن شُـــرْبِها فـــي شُـــغُلٍ شـــاغِلِ
فـــاليومَ أُسْـــقَى غَيْـــرَ مُسْـــتَحْقِبٍ	إثمـــــاً مِـــــنَ الله ولا واغِـــــلِ

(١) تَبَالةُ: بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن، وبين تبالة ومكة نحو مسيرة ثمانية أيام. انظر معجم البلدان ٢: ١١.

(٢) ذو الخلصة: مَرْوَة بيضاء منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكانت بتَبَالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة. انظر الأصنام: ٤٩-٥٠.

(٣) الاستقسام: طلب القِسم الذي قُسِم له وقُدِّر مما لم يُقْسَم ولم يُقَدَّر، لسان العرب: (قسم).

(٤) ديوان امرىء القيس: ١١٩-١٢٠، ١٢٢ و ٢٥٦-٢٥٨ باختلاف في رواية بعض الألفاظ.

(٥) دُودان: قبيلة من بني أسد، وكذلك بنو مالك وبنو عمرو وبنو كاهل وبنو غنم: أحياء من بني أسد.

ويفهم من هذه الأبيات أنه أوقع في بطون بني أسد، في: "بني دودان" و "بني مالك" و "بني عمرو" و "بني كاهل" و " بني غنم بن دودان"، وهي التي قتلت أباه جُحْراً[1]، قالها بعد أن أنجده قرمل بن الحميم الحميري[2]، وأنه "ألبسهم الدروع البيض محماة، وكحّلهم بالنار"[3]، فبرّ بيمينه، وحلّ له شرب الخمر[4].

"وألحّ المنذر في طلب امرىء القيس ووجَّه الجيوش في طلبه من إياد وبَهراء وتَنوخ ولم تكن لهم طاقة، وأمدّه أنوشروان بجيش من الأساورة فسرَّحهم في طلبه. وتفرَّقت حِميَرُ ومن كان معه عنه. فنجا في عُصبة من بني آكل المُرار حتى نزل بالحارث بن شِهاب من بني يَربوع ابن حَنظلة، ومع امرىء القيس أدراع خمسة: الفضفاضة والضافية والمحصِّنة والخريق وأُم الذيول كُنَّ لبني آكل المرار يتوارثونها مَلِكاً عن ملك. فقلَّما لبِثوا عند الحارث بن شهاب حتى بعث إليه المنذر مائة من أصحابه يُوعِده بالحرب إن لم يُسْلم إليه بني آكل المُرار فأسلمهم؛ ونجا امرؤ القيس ومعه يزيد بن معاوية بن الحارث وبنته هند (بنت امرىء القيس) والأَدرُع والسلاح ومال كان بقي معه؛ فخرج على وجهه حتى وقع في أرض طيِّىء[5]؛ وقيل: بل

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢ ٥٧.

(٢) شرح ديوان امرىء القيس: ١٧٢.

(٣) معجم البلدان ٢: ٤٣٩، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ١٧٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧.

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧.

(٥) في العقد الثمين: ٦٤ صار إلى جبلي طيِّىء أجأ وسلمى.

نـزل قـبلَهم علـى سـعد بـن الضِّـباب الإيـادي سـيِّدِ قومـه فأجـاره"[١]، ومدحـه امرؤ القيس[٢].

ثم إن امرأ القيس تحول عنه فنزل برجل من بَني جَديلة طيِّىء يقال له المعلَّى بن تَيْم، وكان أجاره والمنذر بن ماء السماء يطلبه فمنعه ووَفَى له، ولم يكن للملكين: ملك العراق وهو المنذر، وملك الشآم وهو الحارث بن أبي شمر الغساني اقتدار عليه[٣]، وفي ذلك يقول[٤]:

كـــأني إذا نزلـــتُ علـــى المُعَلَّـــى ... نزلـتُ علـى البَـوَاذِخِ مـن شَـمامِ
فمـــا مَلِـــكُ العـــراقِ علـــى المعلَّـــى ... بمقتـــدرٍ ولا مَلِـــكُ الشـــآمِ
أقَـرَّ حَشَـا امـرىء القـيس بـن حُجْـرٍ ... بنـــو تَـــيْمٍ مصـــابيحُ الظـــلامِ

(١) الأغاني ٩: ٩٣، وانظر ٢٢: ١١٨، الكامل في التاريخ ١: ٥١٧–٥١٨، نشوة الطرب ١ :٢٥١، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٩، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٥٧–٢٥٨، وجاء في العقد الثمين: ٧٣ أن امرأ القيس نزل على هانىء بن مسعود بن عامر بن عمرو بن أبي ربيعة قبل سعد بن الضباب فاستجاره فلم يجرهُ، فأتى سعد بن الضباب، فأجاره، فقال يمدحه ويهجو هانىء بن مسعود قصيدته التي مطلعها:

لعَمْرُكَ ما قَلبِي إلى أهْلِه بحُرٍّ ... ولا مُقْصرٍ يوماً فيأْتيني بِقُرّْ

(٢) انظر ديوان امرىء القيس: ١١٢–١١٣، ٢٠٧، ٢٦٠، الشعر والشعراء: ٥٩، الأغاني ٩: ٩٤، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨.
(٣) ديوان امرىء القيس: ١٤٠.
(٤) ديوان امرىء القيس: ١٤٠–١٤١، وبعد البيتين الأوليين:

أَصَدَّ نَشَاصَ ذي القَرْنَيْنِ حتى ... تَوَلَّى عارِضُ المَلِكِ الهُمَامِ

وقد لبث عنده زماناً، ثم اضطرّ إلى الارتحال عنه[١]، فخرج ونزل ببني نبهان من طيِّىء على خالد بن أصمع النبهاني[٢]، فكان عندهم ما شاء الله، ثم خرج فنزل بعامر بن جُوَيْن وهو يومئذٍ أحد الخُلَعاء الفُتَّاك قد تبرَّأ قومُه من جرائره، فبقي عنده زماناً، ثم أحسَّ منه ما رابه، إذ أراد أن يغلب امرأ القيس على ماله وأهله، ففطِن امرؤ القيس لذلك بشعر كان عامر ينطق به، وهو قوله:

فكم بالصَّعيدِ من هِجانٍ مؤَبَّلَهْ	تَسيرُ صِحاحاً ذاتَ قيدٍ ومُرْسَلَهْ
أردتُ بها فَتكاً فلم أَرْتَمِضْله	ونهنهتُ نفسي بعدما كدتُ أَفْعَلَهْ

---

(١) الأغاني ٩: ٩٤، وكان سبب تحوّل امرىء القيس عن المعلَّى بن تَيْم كما يذكر الأصفهاني (٩: ٩٤-٩٥): أن امرأ القيس عندما أقام عند المعلَّى زماناً "اتّخذ إبلاً هناك. فغدا قومٌ من بني جَديلة يقال لهم بنو زيد فطردوا الإبل. وكانت لامرىء القيس رواحل مُقيَّدة عند البيوت خوفاً من أن يَدهَمه أمرٌ ليسبق عليهن. فخرج حينئذٍ فنزل ببني نَبْهان من طيِّىء، فخرج نفر منهم فركبوا الرواحل ليطلبوا له الإبل فأخذتهن جَديلة، فرجعوا إليه بلا شيء. فقال في ذلك:

وأَعْجَبَنِي مَشْيُ الحُزُقَّةِ خالدٍ	كمَشْي أتانٍ حُلِّئتْ بالمَنَاهِلِ
فَدَعْ عنك نَهْباً صِيحَ في حَجَراتِهِ	ولكنْ حديثاً ما حدِيثُ الرواحِلِ

ففرَّقت عليه بنو نَبْهان فِرَقاً من مِعزًى يحلبُها..."، وانظر المحبر: ٣٥٣-٢٥٤، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢.

(٢) ديوان امرىء القيس: ٩٤.

فلما خافه على أهله وماله تغفَّله وانتقل إلى رجل من بني ثُعَل يقال له حارِثة بن مُرّ[١] فاستجار به، فوقعت الحرب بين عامر وبين الثُّعَلي[٢].

وفي ديوان امرىء القيس من رواية الأصمعي[٣] أن امرأ القيس تحوّل عن خالد بن أصمع النبهاني فنزل على جاريةَ بن مُرّ بن حنبل أخي بني ثُعل[٤]، فأجاره وأكرمه.

فلما وقعت الحرب بين طيِّىء من أجل امرىء القيس، خرج من عندهم، ونزل برجل من بني فَزارة يقال له: عمرو بن جابر بن مازِن، وكان كثير التردّد على قيصر امبراطور بيزنطة والنعمان ملك الحيرة، فطلب منه الجوار حتى يرى ذات عَيبة[٥]، فأشار عليه الفَزاري بالذهاب إلى السموأل بن عادياء بتيماء، فوافق، وأرسله في صحبة رجلٍ من بني فَزارة يقال له: الرَّبيع بن ضُبَع الفَزاري كان ممن يأتي السموأل فيحمِلُه ويُعطيه، فوفد الفزاري بامرىء القيس إليه، فنزل عنده وأكرمه

---

(١) هو: أبو حنبل جاريةُ بن مُرّ الطائي ثم الثُّعَلي في: المحبر: ٣٥٢، وفيه: "الثعلبي"، الشعر والشعراء: ٦٠، فصل المقال: ١٣٩، ٣١٥، بلوغ الأرب ١: ١٣٥، العقد الثمين: ١٠٠، وفي الكامل في التاريخ ١: ٥١٨ "حارثة بن مُرّ" بالحاء المهملة.

(٢) الأغاني ٩: ٩٥-٩٦، وفي ديوان امرىء القيس: ٢١٢ أن المنذر بن ماء السماء بعث في إثر امرىء القيس جيشاً "فلجأ إلى المعلَّى، وكان في طيِّىء، ثم في بني جديلة، ثم أحد بني ثعلبة، وكان سيِّداً منيعاً فمنعه من المنذر... ثم خرج من فوره ذلك حتى جعل المنذر يطلبه في كل مكان؛ فخَشِيَ أن يصيبَه فلم يُنَهْنِه دون أن أتَى قيصر ملك الروم..."، وفي الشعر والشعراء: ٥٩ أن امرأ القيس تحول عن سَعْد بن الضباب الإيادي إلى جَبَلَيْ طيِّىء، فنزل على قوم منهم عامرُ ابن جُوَيْن الطائي، وفي الكامل في التاريخ ١: ٥١٨ أنه رحل عن المعلَّى بن تيم الطائي، ونزل بعامر بن جوين الطائي، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢.

(٣) ص: ٩٤، وروى البكري (فصل المقال: ٣١٥) في المثل: "هما ساقَا غادرٍ شَرّ" قصة امرىء القيس وأبي حنبل جارية بن مُرّ الطائي، ويقال: إن صاحب الخبر عامر بن جُوَيْن الطائي، وانظر ص: ١٣٩، وقال الأصمعي: المثل لعبيد بن شَجْنة، وقصة أبي حنبل في المحبر: ٣٥٢، بلوغ الأرب ١: ١٣٥-١٣٦.

(٤) انظر الحاشية رقم (١) من هذه الصفحة.

(٥) أي: ينظر في أمره ويصلح من شأنه.

وعرف له حقَّه. ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني بالشام ليوصله إلى قيصر، فاستنجد له رجلاً، واستودع عنده ابنته هنداً وأدراعه وأمواله، وأقام مع ابنته "يزيد بن معاوية بن الحارث" ابن عمه، وخرج حتى انتهى إلى قيصر(١).

---

(١) الأغاني ٩: ٩٦-٩٩، وانظر ٢٢: ١١٨-١١٩، شعر السموأل: ٧، طبقات فحول الشعراء: ٢٧٩، المحبر: ٣٤٩، الشعر والشعراء: ٦٠، وفيه ذكر ابن قتيبة أن امرأ القيس " لم يزل ينتقل من قوم إلى قوم بجبلَيْ طيِّىء، ثم سمت به نفسه إلى ملك الروم. فأتى السموأل بنَ عادياءَ اليهوديَّ، ملك تيماء، وهي مدينةٌ بين الشام والحجاز، فاستودعه مائة درعٍ وسلاحاً كثيراً..."، مجمع الأمثال ٢:٤٤١، المستقصى ١: ٤٣٥، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨. ويقرب من خبر الشعر والشعراء ما ذكره ابن سعيد في نشوة الطرب ١: ٢٥١، وأبو الفداء في المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨، ٣٨٩-٣٩٠، بلوغ الأرب ١: ١٣٦-١٣٧، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢، العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦. أما اليعقوبي فإنه يروي في (تاريخه ١: ٢١٧-٢٢٠) عن امرىء القيس – منذ أن بلغه مقتل أبيه حُجْر إلى أن وصل إلى قيصر ملك الروم- رواية تختلف في كثير من أحداثها وتفاصيلها عن رواية صاحب الأغاني، يقول فيها: "فلما بلغه مقتل أبيه جمع جمعاً، وقصد لبني أسد، فلمَّا كان في الليلة التي أراد أن يَغير عليهم في صبيحتها نزل بجمعه ذلك، فذعر القطا، فطار عن مجاثمه، فمرَّ ببني أسد، فقالت بنت علباء: ما رأيت كالليلة قطا أكثر! فقال علباء: لو تُرك القطا لغَفَا ونام، فأرسلها مثلاً. وعرف أن جيشاً قد قرب منه، فارتحل، وأصبح امرؤ القيس، فأوقع بكنانة، فأصاب فيهم وجعل يقول: يا للثارات! فقالوا: والله ما نحن إلا من كنانة! فقال:

ألا يا لَهْفَ نفسي، بَعْد قومٍ، .... (الأبيات)

... ومضى امرؤ القيس إلى اليمن لما لم يكن به قوّة على بني أسد ومن معهم من قيس، فأقام زماناً، وكان يُدْمِن مع نَدَامَى له، فأشرف يوماً، فإذا براكب مقبل، فسأله: من أين أقبلت؟ قال: من نجد! فسقاه مما كان يشرب، فلما أخذت منه الخمرة رفع عقيرته، وقال:

سقينا امْرأ القيس بن حُجْر بن حارثٍ كؤوسَ الشَّجا حتى تَعَوَّدَ بالقَهْرِ
وأَلْهَاهُ شُرْبُ ناعِمٍ وقراقرٍ، وأَعْياهُ ثَأرٌ كان يَطْلُبُ في حُجْرِ
وذاك لَعَمْري كان أَسْهَلَ مَشْرَعاً عليه مِنَ البِيضِ الصَّوارِمِ والسّمْرِ

ويرى جرجي زيدان أن امرأ القيس أتى السموأل لمَّا تنكَّرت له القبائل في اليمن ونجد والحجاز، فلم يجرهُ أحد "فاستجاره فأجاره... وهو لا يرى من يستنصره على أعدائه إلاَّ قيصر الروم، لأن ملوك الحيرة عمال الفرس نصروا أعداءه على جاري عادة العرب في ذلك العهد، إذا تظلَّموا من إحدى هاتين الدولتين استنصروا الأخرى"[١]. في حين يزعم بعض المؤرخين أن امرأ القيس قَرَّر أن يذهب إلى القسطنطينية ليستنجد بملك الروم لأن قبائل العرب رفضت نصرته خوفاً من بني أسد، وخوفاً من إغضاب المناذرة والفرس[٢]، وهو زعم يحتاج – في شقّه الأول – إلى إعادة النظر، ليس هذا محّله.

ففزع امرؤ القيس لذلك، ثم قال: يا أخا أهل الحجاز! مَنْ قائل هذا الشعر؟ قال: عَبيد بن الأبرص. قال: صدقت! ثم ركب، واستنجد قومه، فأمدّوه بخمسمائة من مذحج، فخرج إلى أرض معدّ، فأوقع بقبائل من معدّ، وقتل الأشقر بن عمرو، وهو سيِّد بني أسد، وشرب في قحف رأسه، وقال امرؤ القيس في شعر له:

قوْلا لِدُودَانَ: عَبيدِ العَصَا،   ....   (الأبيات)

وطلب قبائل معدّ امرأ القيس، وذهب من كان معه، وبلغه أن المنذر ملك الحيرة قد نذر دمه، فأراد الرجوع إلى اليمن، فخاف حضرموت، وطلبته بنو أسد وقبائل معد، فلمَّا علم أنه لا قوّة به على طلب المنذر واجتماع قبائل معدّ على طلبه، ولم يمكنه الرجوع، سار إلى سعد بن الضباب الإيادي، وكان عاملاً لكسرى على بعض كور العراق، فاستتر عنده حيناً، حتى مات سعد بن الضباب، فلما مات سعد خرج امرؤ القيس إلى جبلَيْ طيِّىء، ... فنزل بقوم من طيِّىء ثم لم يزل ينتقل في طيِّىء مرّة، وفي جديلة مرَّة، وفي نبهان مرَّة، حتى صار إلى تَيْماء، فنزل بالسموأل بن عادياء... فأودعه أدراعاً، وانصرف عنه يريد ملك الروم، حتى صار إلى قيصر ملك الروم، فاستنصره، فوجّه معه تسعمائة من أبناء البطارقة".

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، وانظر العرب قبل الإسلام للمؤلف نفسه: ٢٤٦.

(٢) العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢٨–٢٩، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧.

وثمة تأويل آخر نذهب إليه أن امرأ القيس ربّما فكَّر خلال إقامته في بني فزارة –عند عمرو بن جابر بن مازن – أن يطلب العون والمدد من امبراطور بيزنطة، ولعله سمع عنه كثيراً منه[1]، وقد يكون الذهاب إلى قيصر اقتراحاً من مجيره الفزاري، وقوَّاه الحارث الغسَّاني. إذ يوحي الخبر السابق أن الحارث شجَّعه على الرحلة، وقَبِل أن يقدّمه إلى قيصر، لوجود هدف مشترك يجمع بينهما، فكان الغساسنة، ممثلو بيزنطة في الشام، أعداء ألداء للمناذرة في الحيرة، وقد كان لهؤلاء – بمعاونة الفرس– الدور الكبير في تحطيم ملك كندة[2] وملاحقة امرىء القيس[3]، الأمر الذي جعل كلمتهم هي النافذة بين القبائل الضارية في شرق الجزيرة الشمالي ونجد، وكان للغساسنة وبيزنطة مصلحة عامة في دعم امرىء القيس لاستعادة سلطانه، كي يصبح شوكة في ظهر المناذرة خصومهم التقليديين[4].

---

(١) وذلك عند قوله له: "جئت قيصر وجئت النعمان" في سياق حديثه عن السموأل، إذ يوحي الخبر أن الفزاري كان يتردّد على قيصر وعلى النعمان، وأنه لم يرَ مثل السموأل في إغاثة الضيف؛ قال: "فلم أرَ لضيف نازل ولا لمُجْتَدٍ مثلَه ولا مثلَ صاحبه"، وربما عنى بهذا الصاحب الربيع بن ضُبَع الفزاري، كان ممن يأتي السموأل فيَحْمِلُه ويُعْطيه. ولعل الخبر انطوى على أقوال أخرى في حقّ قيصر شجَّعت امرأ القيس على الذهاب إلى بيزنطة، ولم يذكرها الرواة في الخبر الذي أورده صاحب الأغاني ٩: ٩٦–٩٧.

(٢) وذلك عندما عاد المنذر بن ماء السماء إلى ملكه في الحيرة في عهد أنوشروان، إذ هرب الحارث بن عمرو، وتبعته خيل المنذر، وقتل أهله. المصدر السابق ٩: ٨٠–٨١، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢١.

(٣) وذلك منذ أن لاحق المنذر – بمساعدة الفرس– امرأ القيس عندما لجأ إلى ابن عمته عمرو بن المنذر، وبعد أن هرب إلى حمير، ومن ثم نزوله في بني حنظلة. الأغاني ٩: ٩٢–٩٣، وانظر امرؤ القيس الملك الضليل: ٢٨، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٨١، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧.

(٤) انظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٥، ٨٧.

ويذكر الإخباريون أن قيصر قَبِل امرأ القيس وأكرمه، وصارت له منزلة عنده[١] ونادمه[٢]، وأنه دخل معه الحمام، وأن ابنته نظرت إليه فعشقته، فكان يأتيها وتأتيه[٣]. ويذكرون كذلك أن قيصر[٤] أنجد امرأ القيس وبعث معه جيشاً كثيفاً فيهم جماعة من أبناء ملوك الروم، إذ طمع أن يكون له قوة في العرب يقاوم بها نفوذ الأكاسرة[٥]. ولكنَّ رجلاً من بني أسد يقال له الطَّمَّاح[٦] كان امرؤ القيس قد قتل أخاً له[٧]، لحق بامرىء القيس حتى أتى إلى بلاد الروم فأقام مستخفياً، فلما ارتحل امرؤ القيس قال لقيصر قوم من أصحابه[٨]: "إن العرب قومُ غدرٍ، ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثتَ معه". وفي رواية لابن الكلبي أن الطمَّاح قال لقيصر: "إن امرأ القيس غَوِيٌّ عاهرٌ وإنه لمَّا انصرف عنك

---

(١) الأغاني ٩: ٩٩، وانظر نشوة الطرب ١: ٢٥١، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٢، الشوامخ امرؤ القيس: ١٨، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٢) الشعر والشعراء: ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٥٣، وانظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢.

(٤) هو الامبراطور يوستينيانُس، انظر العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١. ويرسم أيضاً: جستنيان ويستنيان ويوستنيانوس ويوسطنيانوس.

(٥) امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٤.

(٦) في الشعر والشعراء: ٥٣ "الطَّمَّاح بن قيس الأسدي"، وانظر الشوامخ امرؤ القيس: ١٨، وجاء في ديوان امرىء القيس: ١٠٨ من رواية الأصمعي عن الطَّمَّاح قوله: إن الطَّمَّاح رجل من بني أسد، وإن الذي وَشَى بامرىء القيس عند قيصر هو رجل منهم، يقال له: حبيب، وقال بعضهم:منقذ، وقد سمي الطَّمَّاح بقول امرىء القيس: "لقد طمح الطَّمَّاح من بعد أرضه". وزعم " قوم أن الطَّمَّاح رجل من بني أسد أرسله إليه قيصر بثوبه المسموم. وقيل: الذي سار إليه بالثوب هو الطَّمَّاح الأسدي".

(٧) في الشعر والشعراء: ٥٣ أن حُجْراً قتل أباه.

(٨) في الشعر والشعراء: ٦٢ قِيلَ لقيصرَ: "إنّك أمددت بأبناءِ ملوك أرضك رجلاً من العرب، وهم أهلُ غدرٍ، فإذا استمكن مما أراد وقهر بهم عدوَّهُ غزاك".

بالجيش ذكر أنه كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يُشهِّرها بها في العرب فيفضَحُها ويفضحك". فبعث إليه حينئذٍ بحُلَّة وَشيٍ مسمومة منسوجة بالذهب وقال له: " إني أرسلت إليك بحُلَّتي التي كنت أَلبَسُها تَكرِمةً لك، فإذا وصلتْ إليك فالبسها باليُمن والبركة، واكتب إليَّ بخبرك من منزلٍ منزلٍ". فلما وصلت إليه لبِسها واشتدَّ سروره بها؛ فأسرع فيه السمّ وسقط جلده؛ فلذلك سمّي ذا القروح، فلما وصل إلى بلدة من بلاد الروم تُدعى أَنْقِرَة[١] احتُضر بها[٢].

ويرى اليعقوبي في وشاية الطمَّاح الأسدي بامرىء القيس رؤية أخرى تغاير -كل المغايرة- رواية صاحب الأغاني، فهو يزعم أن امرأ القيس مدح قيصر فسار الطمَّاح الأسدي إلى قيصر؛ فقال له[٣]: "إن امرأ القيس شتمك في شعره وزعم أنك علج أغلف. فوجّه قيصر إلى امرىء القيس بحُلَّة قد نضج فيها السمّ، فلما أُلبسها تقطع جلده وأيقن بالموت". في حين يذكر ابن كثير أن امرأ القيس "امتدح قيصر ملك الروم يستنجده في بعض الحروب ويسترفده، فلم يجد ما يؤمله عنده فهجاه بعد ذلك، فيقال إنه سقاه سمّاً فقتله"[٤].

---

(١) اسم للمدينة المسماة: أنكورية، معجم البلدان ١: ٣٢٢، وانظر نشوة الطرب ١: ٢٥٢.

(٢) الأغاني ٩: ٩٩-١٠٠، وانظر ديوان امرىء القيس: ٧، ١٠٨، ٢١٢-٢١٣، الشعر والشعراء: ٥٣، ٦٢، معجم البلدان ١: ٣٢٢، الكامل في التاريخ ١: ٥١٨-٥١٩، نشوة الطرب ١: ٢٥١-٢٥٢، ٣٨٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٣، المزهر ٢: ٤٤٣-٤٤٤، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٩٢، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٠، وانظر تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦.

(٤) البداية والنهاية ١: ٢٠٤.

أما أبو الفداء فيشكك في صحة الخبر المروي عن الحلة، فيقول[١]: "وقد قيل إن ملك الروم سَمّه في حلة وهو عندي من الخرافات"، ويستنكر جرجي زيدان مدى فاعلية هذا السمّ في القتل، فيقول أيضاً[٢]: "ولا نعرف سمّاً يفعل هذا الفعل،

---

(١) المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٢) العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦، وانظر تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨. وقد تناول رواية الحلة المسمومة عدد من الباحثين؛ فمنهم من أنكرها ورفضها، ومنهم مَنْ كان محايداً حيالها، فأما الفريق الأول – وهم الأكثر– فكانوا يرون أن امرأ القيس أُصيب بمرض نتجت عنه قروح التهبت فأودت بحياته، وأما الفريق الثاني فقد ربط بين القروح التي ظهرت في جسمه والحلّة المسمومة؛ وهم – بالإضافة إلى ما ذكر في المتن–:

- البستاني (امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٣–٣٩٤) الذي اتكأ في ترجمته لامرىء القيس على بعض الأخبار التي نقلها عن المؤرخ نونوسوس، فهو يذكر أن نونوسوس لم يشر إلى ما تناقلته كتب الأدب العربي من أن امرأ القيس عشق ابنة قيصر، ونظم فيها الشعر، وأنه عندما علم قيصر بالأمر بعد رحيل الشاعر أرسل إليه بالحلة المسمومة، التي لم يكد يلبسها حتى تناثر لحمه ومات. بيد أن المعروف أن الشاعر أصيب في أنقرة – وهو عائد إلى دياره من بيزنطة– بمرض كالجدري، فتوفي هناك، ولعلَّ البثور والقروح الناتجة من هذا المرض أثارت مخيلة الرواة العرب، فرأوا أن حادثة الحلة المسمومة أكثر تشويقاً وأوفر شاعرية من هذا الموت العادي، فألفوا تلك الأسطورة الجميلة، وسموا الشاعر "ذا القروح".
- أما محمد صالح سمك (أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٣) فقد أنكر – هو الآخر– مسألة الحلة، وكان رأيه فيها مماثلاً بعض الشيء لرأي جرجي زيدان؛ قال: ونحن لا نعرف حلة مسمومة كهذه الحلة لها هذا التأثير العجيب، ولذلك فهي في نظري أشبه بالخيال منها بالقول اليقين، بل إنها من خرافات التاريخ، وليس في شعر امرىء القيس ما يدل على أن موته كان بسبب حلة مسمومة، وكل ما دلّ عليه شعره أنه قد تقرّح بدنه، وأن الطَّمَّاح وشى به إلى قيصر لا غير. والرأي عندي أن امرأ القيس مات بالجدري كما ذكر ذلك نونوسوس المؤرخ الروماني.
- وأما سليم الجندي (امرؤ القيس: ٢٥) فقد فسَّر موته بالحلة المسمومة على نحو مغاير، دون أن يشكك في الخبر المرويّ عنها، فيذكر أن موته بالحلة المسمومة يجوز أن يكون أصابه قروح من احتكاك الثياب بجسمه فخالطها السمّ، كما يجوز أن تكون تلك القروح التهبت فأودت بحياته.

وعلى كل حال فإن امرأ القيس قتل ولم ينل أرباً"، ويفنِّد أحد محرّري دائرة المعارف الإسلامية رأي القدماء في موت امرىء القيس بالحُلَّة المسمومة بقوله[1]: "وتزعم الرواية العربية أن يوستينيانُس أراد أن يثأر لشرفه الذي لوثه امرؤ القيس بتغريره بابنته فخلع عليه حلَّة فظهرت في جسمه قروح، ومن ثم عرف بذي القروح، والحق أنه لم يكن ببلاط يوستينيانُس أو ببلاط خلفه يوستنيوس أميرة لها نفس الأوصاف التي ذكرها امرؤ القيس".

ويبدو أن هذه الرواية – القائلة بموت امرىء القيس مسموماً بالحُلَّة، وعلاقته بابنة القيصر التي كانت وراء حتفه– قد شغلت بعض المستشرقين في ترجماتهم لامرىء القيس؛ فيرى بروكلمان[2] أن فجور هذا الشاعر بإحدى بنات ملك الروم، ثم أمره بقتله في أنقرة وهو في طريق عودته – مخترع عليه؛ لأنه كثيراً ما كان يفاخر بمغامراته مع النساء[3]، وأن قصة موته محترقاً لأنه لبس حلة مسمومة

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤٠٦. وينقض هذا الرأي ما ذهب إليه الطاهر أحمد مكي (امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١–٩٢)، فهو يرفض أن يكون الامبراطور غضب على شاعرنا لأنه شبَّب بابنته، إذ لا يستبعد أن يكون عندما رآها أعجب بها، ومن ثم تغزّل بها، وهو أمر ليس مستغرباً من شاعر تعوَّد الحديث عن النساء والتشبيب بهن، ولم يكن التغزُّل في امرأة جميلة مما يعاب في بيزنطة في عصر امرىء القيس ولا بعده. ويحتجّ لذلك بخبر رواه المقّري (نفح الطيب ٢: ٢٥٨–٢٥٩) عن شاعر عربي وهو يحيى الغَزَال، جاء بلاط قيصر سفيراً لعبدالرحمن الناصر خليفة الأندلس، فأعجبته زوجة الامبراطور فتغزَّل بها، وكان الامبراطور مسروراً بما قيل عن جمال زوجته، وكانت زوجته أكثر منه سروراً.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١: ١٥٦.

(٣) أوضح مثال على ذلك: يوم دارة جُلْجل، ديوانه: ١٠–١٢، وانظر: ١٣–١٨، ٢٩–٣٢، ١٥٨–١٥٩، ٢٣٠–٢٣١، ٢٤١–٢٤٢، الشعر والشعراء: ٦٥–٦٦، امرؤ القيس حياته وشعره: ٥٨–٦٠، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٤، امرؤ القيس الملك الضليل: ٥٣–٥٥، مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ٥٢–٥٥.

منحولة عليه أيضاً، ويعلّل منشأ ذلك – عند مَنْ ذهبوا هذا المذهب– سوء فهم بعض الأبيات من قصيدته: وبُدِّلْتُ قرحاً دامياً بعد صحة[١].

ولعل من أفضل الآراء في هذا الباب رأي الأستاذ حسن السندوبي الذي عرض لمسألة الحُلَّة وموت امرىء القيس، فهو يقول[٢]: "من تضارب هذه الأقوال يرجّح أن مسألة الحُلَّة لا أصل لها: وإذا كان القيصر يريد إهداءه شيئاً لقدّم إليه الهدية وهو عنده ولم يرسلها مع رسول بعد انفصاله عنه، وأن وشاية الطمَّاح لم تترك لها أثراً في نفس القيصر وإلاّ لما أقام له هذا التمثال[٣]. ومن المعروف أن قياصرة الروم كانوا يتودَّدون إلى العرب ويتألفونهم ليكونوا في جانبهم ضدَّ أكاسرة الفرس الذين كانوا معهم في نزاع دائم. والظاهر أن الطمَّاح هو الذي أُصيب بداء الجدري[٤] وسرت عدواه منه إلى امرىء القيس فتأثر به أشدّ تأثر حتى قضى عليه. ولذلك سمّاه في بيتيه الآتيين داءً ولم يسمّه سمّاً، وفي ذلك يقول امرؤ القيس[٥]:

لَقَدْ طَمَـحَ الطَّمَّـاحُ مِنْ بُعْدِ أَرْضِـهِ ... لِيُلْبِسَـنـي مـن دَائِـهِ مـا تَلَبَّسَـا

فَلَـوْ أَنَّهـا نَفْـسٌ تَمـوتُ سَـوِيَّةً ... ولكنَّهـا نَفْـسٌ تَسـاقَطُ أَنْفُسَـا "

(١) انظر ديوان امرىء القيس: ١٠٧-١٠٨، الأبيات ١١-١٣، وسيأتي الحديث عنها.

(٢) شرح ديوان امرىء القيس: ٢٨-٢٩.

(٣) سيأتي الحديث عن ذلك –عمَّا قريب– في خبر للأب لويس شيخو اليسوعي.

(٤) انظر الحاشية السابقة.

(٥) انظر ديوان امرىء القيس: ١٠٧-١٠٨. باختلاف في رواية الألفاظ وبتقديم البيت الثاني على الأول.

ويعلّق على البيت الأول بقوله[١]: "عبَّر عن العدوى بالإلباس ولذلك سمّاه داءً. وقال: ما تلبسا، يريد ما أُصيب به في هذا الداء. ولعل الرواة قد أخذوا بظاهر اللفظ فتوهموا أن هناك حلة تلبس".

إن ما انتهى إليه السندوبي من تفسير لبيت امرىء القيس، وما ترتَّب عليه من نتيجة قد قال به المؤرخون قبله وبعده، في القديم والحديث، فذكر بعضهم أن امرأ القيس كان مصاباً بداء قديم[٢]، ويغلب على الظن أنه – كما ذكر أبو الفداء– قرحة قد طالت به[٣]، وقد ذكر ذلك في شعره[٤]، وأن هذا الداء عاوده في بلاد الروم بعد منصرفه عن قيصر[٥]، فلما وصل إلى أنقرة ثَقُلَ واشتدّ عليه المرض، فمات هناك[٦]. أو أن السمَّ فتك به، فتوفّي في هذه المدينة[٧]. وفي رأي آخر يفيد أن امرأ القيس كان مصاباً بخلل جنسي في بنيته، وانعكس ذلك في التهاب جلدي لأن العلاقة بين أمراض الجنس وأمراض الجلد مقرّرة علمياً، وأن المرض هو الذي أودى به في الحقيقة[٨]. وفي رواية للأصمعي أن امرأ القيس لمَّا بلغ أنقرة – بعد وشاية الأسدي به إلى قيصر– طُعِن وقُتِل وارفضَّ عنه أصحابه[٩].

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس: ٢٨، الحاشية رقم (١).

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، وانظر العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٣) المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٤) ديوان امرىء القيس: ١٠٧، وانظر المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، وسيأتي الحديث عن ذلك.

(٥) انظر الحاشية رقم (٢).

(٦) الشعر والشعراء: ٦٣، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤، العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(٧) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣:٢٦٤.

(٨) امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢.

(٩) ديوان امرىء القيس: ١٠٨.

والذي يبدو – من تجميع هذه الأخبار – أن امرأ القيس أُصيب بمرض هلك فيه، سواء أكان داءً قديماً أو عدوى سرت إليه من غيره؛ لأنه يتردّد صدى هذه الحادثة في شعره، وأن الأقوال الأخرى التي ذكرت موته بغير المرض هي من قبيل الاحتمال والتأويل والظن أو من نسج الرواة العرب. ويذكر أنه – بعد ذلك – رأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت في سفح جبل يقال له: عَسيب؛ فسأل عنها فأخبر بقصتها، ثم مات فدُفن إلى جنب المرأة فقبره هناك(١). وأشار البحتري إلى قبره بأرض الروم في إحدى قصائده؛ فقال(٢):

وأَزَرْتَ الخُيُولَ قَبْر "امْرِىء القَيْـ ... ـسِ" سِـرَاعاً فعُـدْنَ منـه بِطَـاءَ

وفي الخبر الذي ضمَّنه الأب لويس شيخو اليسوعي ترجمة امرىء القيس إضافة جديدة لنا عن رحلة هذا الشاعر إلى قيصر، ومن ثم تولّيه إمرة فلسطين، ودائه الذي كان سبباً في موته، وقد رأيت أن أذكر قوله كاملاً لأهميته في هذا المجال؛ فهو يشير إلى أن امرأ القيس قد جاء ذكره في "تواريخ الروم مثل نونوز وبركوب وغيرهما وهم يسمّونه قيساً، وقد ذكروا أنه قبل وروده على قيصر يوستينيانُس أرسل إليه [بواسطة الحارث الخامس الغساني] (٣) وفداً يطلب منه النجدة على بني أسد وعلى المنذر ملك العراق، [دفعه إلى ذلك ما كان يعرفه عن

(١) الأغاني ٩: ١٠٠–١٠١، وانظر الشعر والشعراء: ٦٣، الكامل في التاريخ ١: ٥١٩، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، البداية والنهاية ١: ٢٠٤، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٤.

(٢) ديوانه: ١٨، وانظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١: ١٥٦.

(٣) الزيادة من كتاب: امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢، وذلك كما ذكر فوطيوس ناقل خبر سفارة نونوسوس إلى الحبشة والحميرين وقبائل البادية.

العهد المعقود بين جدّه الحارث وانسطاس قيصر، الامبراطور الأسبق] [1]، وكان مع الوفد ابنهُ معاوية سيَّره امرؤ القيس إلى قيصر ليبقى عنده كرهن. فكتب قيصر إلى النجاشي يأمره أن يجنِّد الجنود ويسير إلى اليمن ويعيد الملك لصاحبه، ولعلَّ هذا الوفد أرسله امرؤ القيس لمَّا كان عند بني طيِّىء وطال عندهم مكثه. ثم أخبر المؤرخون المومأ إليهم أن امرأ القيس لم يلبث أن سار بنفسه إلى قسطنطينية، فرغبهُ قيصر ووعده. وقد ذكر نونوز المؤرخ أن يوستينيانُس قلَّدهُ إمرة فلسطين، إلاَّ أنه لم يسعَ في إصلاح أَمْره وإعادة ملكه، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلده وكانت وفاته نحو سنة ٥٦٥م. أصابه مرضٌ كالجُدَري في طريقه كان سبب موته، وذُكِر في كتاب قديم مخطوط أن ملك قسطنطينية لمَّا بلغهُ وفاة امرىء القيس أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على ضريحه، ففعلوا وكان تمثال امرىء القيس هناك إلى أيام المأمون، وقد شاهده هذا الخليفة عند مروره هناك لمَّا دخل بلاد الروم ليغزو الصائفة"[2].

إن إرسال امرىء القيس وفداً قبله إلى القيصر أمر لم نعرفه من قبل، وكذلك لم يذكر أحد من الرواة العرب ذلك العهد الذي أشرنا إليه، والغريب أن رواية هذا الخبر من أوله إلى منتهاه، وغيره من الأخبار التي وردت في تواريخ الروم، لا أصل لها في الروايات العربية، وهي في ظني لا أساس لها من الصحة؛ لأنها تخالف ما تناقله جمهرة الرواة والإخباريين العرب عن رحلة امرىء القيس من جهة،

(١) الزيادة من المرجع السابق: ٣٩٢، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٦، المشرق: ١٠٠٥، وذكر الأب لويس شيخو اليسوعي أن القيصر انسطاس أرسل جدّ نونوسوس المؤرخ إلى الحارث ليعقد عهداً معه.

(٢) شعراء النصرانية ١: ٣٥، وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢، امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٤، تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٦، الشوامخ امرؤ القيس: ١٧–١٨، المشرق: ١٠٠٥.

ولأنها قد تكون صيغت وقيلت لتحقّق مطالب عندهم توافق مذهبهم من جهة ثانية، فقد ذُكِر أن يوستينيانس أجاب طلب امرىء القيس لسببين، أولهما: كون الطالب نصرانياً، إذ كان يوستينيانس من الغُيّر على الدين، وثانيهما: وهو الأهم –كما يظهر من قول بركوب– أن عدوّ امرىء القيس كان المنذر، والمنذر من عمال الأكاسرة منافسي القياصرة في بسط السيطرة على أطراف الجزيرة العربية[١].

ويضيف أحد محرّري دائرة المعارف الإسلامية سبباً آخر جديداً تفرَّد به، لرحلة امرىء القيس إلى الملك الرومي نختم به حديثنا في وصف هذه الرحلة، فيروي أن الامبراطور يوستينيانُس أخذ بنصيحة الحارث بن أبي شَمِر الغساني والي بادية الشام، فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠م ليستعين به على الفرس، ومكث هذا الشاعر طويلاً في القسطنطينية، ثم استعمله على الشام وعلى القبائل التي تعيش على الحدود، ولُقب بلقب فيلارق Phylarck أي الوالي، ولكنه توفّي في أنقرة فيما بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠م[٢] أثناء رحيله لتولّي منصبه هذا[٣].

وأرى أن ما رُوي عن دعوة الملك الرومي لامرىء القيس إلى القسطنطينية، وجعله أميراً على قبائل فلسطين ليستعين به على الفرس – منحول عليه للأسباب التي ذُكِرت آنفاً، وأضاف بروكلمان أنه حدث حقيقة لابن عمه: قيس بن سلمة[٤]. وهذا ما لم يقل به أحد من المؤرخين والرواة العرب أيضاً.

---

(١) انظر امرؤ القيس منتخبات شعرية: ٣٩٢.

(٢) وانظر الشوامخ امرؤ القيس: ٢١. وقيل: كانت وفاته عائداً من القسطنطينية نحواً من عام ٥٦٥م، قريباً من أنقرة. امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٩٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٤: ٤٠٦، وانظر شرح ديوان امرىء القيس: ٢٩–٣٠.

(٤) تاريخ الأدب العربي ١: ١٥٦.

فإذا كان وصف رحلة امرىء القيس قد سار على هذا النحو، فذلك لأن المظانّ التي اعتمدنا عليها في هذا السرد وزوّدتنا بالأخبار السابقة، قد فصَّلت القول في تنقّل امرىء القيس بين القبائل في داخل الجزيرة العربية واليمن، وفي ذكر الأماكن التي أقام فيها إقامة قصيرة أو طويلة، وأجملته في خارجها إلى أن وصل إلى قيصر، وهو وصف يدل – في عمومه وإن تضاربت بعض الآراء– على أن هذا الشاعر ابتدأ رحلته من الجزيرة العربية، ثم اتجه في سيره إلى الغرب إلى أن انتهى به المطاف إلى عاصمة الروم، ويؤرخ بعض المستشرقين هذه الرحلة فيذكر أن ذهاب امرىء القيس إلى القيصر يوستينيانُس كان حوالي سنة ٥٣٠ للميلاد(١).

ويبدو من الأخبار التي عرضنا لها أنه كان يعوزها – من أجل أن تكون دليلاً قائماً على صواب استنتاجنا– الشعر الجاهلي، ونعني به شعر امرىء القيس الذي سجَّل فيه بعض الأحداث التي حدثت معه، أو الأماكن التي مرَّ بها في طريقه إلى بلاد الروم، وفي إقامته عندهم، وفي طريق عودته إلى دياره بعد منصرفه عنهم، حيث انتهت به العودة إلىأَنْقِرَةِ التي كانت نهايته فيها؛ وكذلك شعر عمرو بن قميئة رفيقه في السفر.

فإذا كان ذلك كذلك، فإن هذا يسهّل علينا الانتقال في الحديث إلى المحور الثاني المتعلّق بالأشعار التي أومأنا إليها.

* * *

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٥، وانظر الخبر السابق من دائرة المعارف الإسلامية. ويقرّر الطاهر أحمد مكي أن بداية رحلة امرىء القيس إلى القسطنطينية تقع في زمن قريب من عام ٥٦٣م. انظر حديثه عن ذلك وطرق استدلاله في كتابه: امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٨–٨٩.

(٢)

يذكر الرواة أن عمرو بن قميئة كان رافق امرأ القيس في سفره إلى قيصر ملك الروم[١]، وقد أشار إلى ذلك امرؤ القيس في شعره؛ فقال[٢]:

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَه   وأَيْقَنَ أنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا
فَقُلْتُ لَه: لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّما   نُحاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

ويذكرون أنه كان من قُدماء الشعراء في الجاهلية، وهو أقدَم من امرىء القيس، قيل: كان مع حُجْر أبيه، ولَقِيه امرؤ القيس في آخر عُمره فأخرجه معه إلى قَيْصر في بلاد الروم لمَّا توجَّه إله يستمدّه على بني أسد، فمات معه في طريقه، وسَمَّتْه العربُ عُمْراً الضائع لموته في غُرْبة وفي غير أَرَب ولا مَطْلب[٣].

---

(١) انظر المصادر في الحاشية رقم (١) في الصفحة التالية.
وقد ورد في ديوان امرىء القيس (ص: ٣٤٧) من رواية السكّري أن الحارث بن حبيب السُّلَمي كان خرج معه إلى الشام، ولكنه لم يكمل الرحلة، فمات في الطريق قريباً من بصرى في تلك الديار ؛ فقال يرثيه:

ثَوَى عند الوَدِيَّة جَوْفَ بُصْرَى   أبو الأَيتامِ والكلِّ العِجافِ
فَمَنْ يَحْمِي المُضَافَ إذا دَعَاهُ   وَيَحْمِلُ خُطَّةَ الأَنَسِ الضِّعافِ

وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٨٧.

(٢) ديوان امرىء القيس: ٦٥-٦٦، وفي رواية للمفضَّل الضّبّي (ص: ٢١٢): أن الذي خرج مع امرىء القيس إلى قيصر رجل من بني سَدُوس، ويقال إنه من ضُبَيْعة هو عمرو بن قميئة، وجاء في معاهد التنصيص ١: ٣٨٩ أن هذين البيتين قالهما امرؤ القيس في الربيع ابن ضُبَع الفَزاري لمَّا لجأ إلى السموأل بن عادياء، وانظر تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) الأغاني ١٨: ١٣٩، وانظر ص: ١٤٤، ديوان امرىء القيس: ٢١٢، ديوان عمرو بن قميئة:١٥٦، فحولة الشعراء: ١٠، طبقات فحول الشعراء: ١٦٠، الشعر والشعراء: ٢٩٢

ويروي ابن قتيبة في ترجمته لامرىء القيس، فيقول[1]: "ثم سار ومعه عمرُو بن قَمِيئة أحد بني قيس بن ثعلبة، وكان من خدم أبيه، فبكى ابن قميئة وقال له: غَرَّرتَ بنا، فأنشأ امرؤ القيس يقول:" وروى أبياته[2]. ويشكك بعض المستشرقين في مرافقة عمرو هذا لشاعرنا، فيذكر أن خروجه إلى الروم مع امرىء القيس ملك للأسطورة[3]، دون أن يقدم دليلاً واحداً أو شاهداً مقنعاً على صحّة رأيه، الذي خالف فيه ما أتى به الرواة قديماً وحديثاً، والذي نقض فيه قصيدة صحيحة النسبة لامرىء القيس من رواية عالم ثقة هو الأصمعي، من أبياتها أبيات تذكر عمرو بن قميئة وصحبته له والأحداث التي حصلت معهما في هذه الرحلة.

وتبيّن هذه الرواية وسابقتها أن بين امرىء القيس وعمرو بن قميئة سابق معرفة، وأن هذه المعرفة نمت وتطورت بحيث تمكّن شاعرنا من أن يعرض الرحلة وسببها على عمرو بن قميئة، فيوافق هذا الآخر ويكون رفيقه في سفره ذاك. في حين نجد صاحب الأغاني يروي رواية أخرى عن سفر امرىء القيس إلى قيصر

المؤتلف والمختلف: ٢٥٤، معجم الشعراء: ٤، الموشّح: ٣٢، نشوة الطرب ٢: ٦٢٦، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، خزانة الأدب ٤: ٤١٢، امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٣-٢٤، امرؤ القيس الملك الضليل: ٣٠، قراءة ثانية في شعر امرىء القيس: ٧٥، الملك الضليل امرؤ القيس: ١٤٥، ١٤٧.

(١) الشعر والشعراء: ٦٠-٦١.

(٢) روى البيتين السابقين (بكى صاحبي...) بزيادة بيتين آخرين عليهما، هما:

وإنـــي أَذِيْـــنٌ إنْ رَجَعْـــتُ مملَّكـــاً ... بِسَـــيْرٍ تَـــرَى منـــه الفُرَانِـــقُ أَزْوَرَا
علـى ظهـرِ عـاديٍّ تَحَـارُ بـه القَطَـا ... إذا سَـــافَهُ العَـــوْدُ الـــدِّيافِيُّ جَرْجَـــرَا

(٤) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير: ٢٨٥.

تنفي – في محتواها– وجود المعرفة بين هذين الشاعرين، يقول أبو الفرج[1]: "نزل امرؤ القيس بن حُجْر ببكر بن وائل، وضرب قبَّتَه، وجلس إليه وجُوهُ بَكْر بن وائل، فقال لهم: هل فيكم أحد يقولُ الشِّعر؟ فقالوا: ما فينا شاعر إلا شيخ قد خلا من عمره وكبر، قال: فأْتوني به، فأتوْه بعَمْرو بن قَميئة وهو شيخ، فأَنْشَدَه فأُعجِب به، فخرج به معه إلى قَيْصر، وإيَّاه عَنَى امرؤ القيس بقوله:

بكى صاحبي ...   .   (البيتان)

وقال مؤرِّج في هذا الخبر: إن امرأ القيس قال لعمرو بنِ قَميئة في سفره: ألا تركب إلى الصَّيْد؟ فقال عمرو[2]:

شَــكوتُ إليـــه أَنَّنــي ذُو جلالــةٍ   وأنِّــي كَبِيــرٌ ذُو عِيــالٍ مُجَنِّــبُ
فقــال لنــا: أهــلاً وسَــهْلاً ومرحبــاً   إذا سَرَّكُمْ لحمٌ مِنَ الوَحْشِ فارْكَبُوا"

وسواء كان بين امرىء القيس وعمرو بن قميئة سابق معرفة أو لم تكن هذه المعرفة موجودة أصلاً، فإن امرأ القيس استصحبه معه في رحلته إلى قيصر في بلاد

(١) الأغاني ١٨: ١٤٤، وانظر ديوان امرىء القيس: ٦٥، ديوان عمرو بن قميئة: ١٥٥–١٥٦، وروي هذا الخبر في مقدمة القصيدة رقم (١٤) من ديوان ابن قميئة على نحو آخر، حيث تقول الرواية: "ومَرَّ امرؤ القيس بن حُجْر الكندي ببكر بن وائل، فضرب قِبابَه؛ فقال: أما فيكم شاعر؟ فقالوا: بَلَى! بَقِي لنا شيخ من قيس بن ثَعْلَبة فسألهم أن يأتوه به. فلما أَتاه اسْتَنْشَدَه، فأعجبه. فقال له امرؤ القيس: اصْحَبْني! ففعل؛ فانطلق معه، فَهَلك؛ ولذا سُمِّي عَمْراً الضَّائع، فقال عمرو بن قميئة:". (البيتان)، امرؤ القيس لسليم الجندي: ٢٣.

(٢) انظر ديوان عمرو بن قميئة: ١٥٦، ويروى: "مُحَنَّبُ".

الروم، فأجابه إلى صحبته، وأنه لمَّا صار إلى ساتِيدَمَا وهو جبل هناك[١]. تذكّر أهله وديارِه فبكى شوقاً إليهم؛ وفي ذلك يقول[٢]:

قَدْ سَأَلَتْنِي بِنْتُ عَمْرٍو عَنِ الْـ .... أَرْضِ الَّتِي تُنْكِرُ أَعْلامَهَا
لَمَّا رَأَتْ سَاتِيدَمَا اسْتَعْبَرَتْ، ... للهِ دَرُّ -اليَوْمَ- مَنْ لامَهَا!
تَذَكَّرَتْ أَرْضاً بِهَا أَهْلُهَا ... أَخْوَالَهَا فِيهَا وأَعْمامَهَا

وقد استدعى ظاهر البيت الأول الرواةَ إلى تعيين الشخص الذي بكى في هذه الرحلة، خاصة أن الإخباريين لم يشيروا إلى أن عمرو بن قميئة قد اصطحب ابنته معه؛ فقال أبو محمد الأسود الأعرابي في تفسيره عن أبي النَّدَى[٣]: "سبب بكائها... أنها لمَّا فارقتْ بلادَ قومِها، ووقعت إلى بلاد الروم بكت، وندمت على ذلك، وإنما أراد عمرو بهذه الأبيات نفسَه لا بِنْتَه، وإنما كنَّى عن نفسه بها. وساتيدما: جبل بين مَيَّافارِقِين وسَعَرْت... وقال عمرو هذا الشعر حين خرج مع امرىء القيس إلى الروم[٤]، وقصتهما معروفة".

---

(١) سيأتي الحديث عن "ساتِيدَما" فيما بعد.

(٢) المصدر السابق: ١٨١-١٨٤.

(٣) فُرحة الأديب: ٨٧، وانظر تحصيل عين الذهب ١: ٩١، وفيه قال الأعلم الشنتمري - ونقله عنه البغدادي في الخزانة (٤: ٤٠٨)- :"وصف امرأة نظرت إلى ساتيدما- وهو جبل بعينه بعيدٌ من ديارها- فذكرت به بلادها فاستعبرت شوقاً إليها، ثم قال: لله درّ اليوم من لامها على استعبارها وشوقها، إنكاراً على لائمها، لأنها استعبرَت بحقٍّ، فلا ينبغي أن تُلاَمَ"، وعقّب البغدادي على كلام الأعلم، فقال: "هذا كلامه. وليس هذا معنى الشعر فتأمَّل"، معجم البلدان ٣: ١٩٠، خزانة الأدب ٤: ٤٠٧.

(٤) في معجم البلدان وخزانة الأدب: "ملك الروم" مع اختلاف يسير في بعض ألفاظ الخبر.

ومما يؤيد القول إن عمرو بن قميئة لم يُرِدْ بهذه الأبيات بِنْتَه، وإنما أراد نفسه قول امرىء القيس: "بكى صاحبي..."، حيث أشار إلى بكاء عمرو عندما صحبه في رحلته، فهما لمَّا جاوزا بلاد العرب وصارا ببلاد الروم، وأيقن عمرو أنهما لاحقان بقيصر حنَّ إلى بلاده فبكى، وكذلك قول ابن قتيبة في ترجمته لامرىء القيس، وأبي الفرج الأصفهاني في ترجمته لعمرو بن قميئة السابقين.

فإذا كان شعر عمرو بن قميئة قد زوّدنا بأبيات يسيرة عن هذه الرحلة، دلَّت – في مضمونها– على الموضع الذي كانت إليه الرحلة وانتهت فيه؛ فإن هذا يدفعنا إلى التساؤل: أي الطرق سَلَك، وما هي الأماكن التي مرَّ بها، وإلى أي الجهات توجَّه؟ ولعل شعر امرىء القيس أوفر حظّاً في الإشارة إلى شيء من ذلك! ولكن – قبل أن نمضي في الحديث عن ذلك– لا مناص من أن أشير إلى بيت لعبيد بن الأبرص شاعر بني أسد، وكان معاصراً للأحداث، يذكر فيه رحلة امرىء القيس إلى قيصر، ويسخر من وعيده، ويدعو عليه بالهلاك وأن يلقى مصيره وهو بالشام؛ يقول[١]:

أَزَعَمْتَ أَنَّكَ سَوْفَ تأتي قيصراً؟ فَلَتهْلِكَنَّ إذن وأنتَ شآمي[2]

إن خبر امرىء القيس مع الغساسنة في طريقه إلى قيصر لا نعلم عنه شيئاً، وليس في شعره هو ما يشير إلى أنه ذهب إليهم رجاء التوسط في الوصول إليه[٣]، سوى ما ذكرناه عن صاحب الأغاني وغيره من أنه طلب إلى السموأل بن عادياء أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شَمِر الغساني بالشام – صاحب النفوذ عند

(١) ديوان عبيد: ١٢٤، وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١.

(٢) وأنت شآمي: أي وأنت بالشام قبل أن تصل إلى قيصر.

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٣.

قيصر الروم يومئذ[1] – ليوصله إليه، ففعل، واستصحب معه رجلاً يدلّه على الطريق، ومضى حتى انتهى إلى قيصر.

وكذلك لم تشر الأخبار العربية إلى سفره إلى القسطنطينية، ولا إلى كيفية وصوله إلى قيصر[2]، وليس "في كتب الروم أو السريان الواصلة إلينا إشارة إلى هذه الحوادث التي يرويها الإخباريون عن ذهاب امرىء القيس إلى القسطنطينية، وطلبه النجدة من القيصر وموته في أنقرة، ولا عن الشعر الذي قاله في حقّ القيصر، وفي حق القبر الذي شاهده، وما إلى ذلك مما يذكره الإخباريون. فأمور مثل هذه لا يعرفها هؤلاء"[3]. ويبدو من شعره أنه سلك طريق الشام[4]، وأنه مرَّ على "حَوْرَان"[5] و "بَعْلَبَكّ "[6] و "حِمْص"[7] و "حَمَاة" و "شَيْزَر"[8]، وقال في مسيره قصيدته المشهورة التي مطلعها[9]:

سَما لَكَ شوقٌ بعدما كان أقْصَرَا وحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوٍّ فَعَرْعَرَا

أمَّا ما بعد ذلك من الأماكن التي مرَّ عليها حتى وصل إلى عاصمة الروم، فلا نعرف عنها شيئاً.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٠٨، وانظر العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان: ٢٤٦.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣: ٢٦٣.

(٣) المرجع السابق ٣: ٢٦٥.

(٤) سيأتي الحديث عن القصيدة، وانظر بالإضافة إليها: الأغاني ٢٢: ١١٨، ١١٩، تاريخ ابن خلدون ٢: ٥٧٤، معاهد التنصيص ١: ٣٨٨، ٣٩٠.

(٥) مدينة بالشام.

(٦) قرية بالشام بين دمشق وحمص.

(٧) مدينة بالشام.

(٨) موضعان في ناحية الشام، وانظر مروره في هذه الأماكن – بالإضافة إلى القصيدة– في: المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥.

(٩) القصيدة في ديوان امرىء القيس: ٥٦–٧١، وانظر المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، شعراء النصرانية ١: ٤٥–٤٩، العقد الثمين: ٧٧–٨٠.

وقد حفظ لنا ديوان امرىء القيس ثلاث قصائد[١] من الشعر الذي يتصل بالرحلة إلى قيصر، يلتقي في روايتها العالمان الجليلان الأصمعي والمفضَّل الضّبّي وآخرون[٢]، وقصيدة[٣] وردت في زيادات ملحق الطوسي من المنحول الثاني[٤]، لم تثبت في رواية المفضل والأصمعي وأبي عُبيدة، ونسبها غيرهم إلى امرىء القيس، ومقطوعة تفرّد الضبّي بروايتها، ومقطوعتان مما زاده السكّري على غيره من الرواة.

والقصيدة الأولى هي الرابعة في الديوان[٥]، وعدد أبياتها أربعة وخمسون بيتاً، وقد سبقت الإشارة إلى أنه قالها في الطريق إلى قيصر. جمعت هذه القصيدة

---

(١) رواية الأصمعي من نسخة الأعلم.

(٢) انظر الفصل الخاص بذلك في ديوان امرىء القيس: "تحقيق رواية الديوان: قصائده وأبياته" في المواضع: ٣٩٠، ٤٠٠، ٤٠٥، امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٤.

(٣) مطلعها:

أَأَذكَــرْتَ نَفْسَــكَ مَــا لَــنْ يَعُــودَا   فهــاجَ التــذكُّرُ قلبــاً عَمِيــدَا

انظر ديوان امرىء القيس: ٢٥١-٢٥٤.

(٤) وهو الشعر الذي ألحقه شارح النسخة بها، وسمّاه "المنحول الثاني" مما كتبه عن غير الطوسي، والنَّحل في قصائد هذا القسم ومقطوعاته – وعددها ستّ وعشرون– بَيِّن، وتكاد تكون نسبتها لامرىء القيس معدومة. انظر المصدر السابق: ١٢ (المقدمة).

(٥) الذي حقّقه محمد أبو الفضل إبراهيم، والذي اعتمدت عليه في هذا البحث، ص: ٥٦-٧١، وهي الرابعة في مخطوطة الأعلم الشنتمري، والخامسة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضّل)، والخامسة في مخطوطة السكري ومخطوطة البطليوسي، والسادسة عشرة في مخطوطة ابن النحاس، والأربعون في مخطوطة أبي سهل. وانظر امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٤-٩٩، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١٩٥-٢٠٢، أمير الشعر في العصر القديم: ٣٠٥-٣١٢، قراءة ثانية في شعر امرىء القيس: ٦٤، ٧٤، ٧٥، ١١٠، ١٣١، ١٤٢.

صفات شعره في الطور الأول من حياته[١]، فإنه شبَّب فيها بصويحباته، وذكر الأماكن والديار التي مرَّ بها، ووصف الطرق التي سلكها. وهي تصوّر شخصية امرىء القيس أصدق تصوير في النزوع إلى الماضي والتطلّع إلى المستقبل، وتعبّر عن مشاعره المتلوّنة أوضح تعبير وهو يتأرجح بين جزر اليأس ومدّ الأمل، فهي صدًى حقيقي لواقع قائم، وتجربة قاسية مرَّ بها، وحياة مأهولة بالمتاعب خاضها متحدياً لها. بدأها بمقدمة طللية هي أطول مقدمة في ديوانه، وتلائم موضوع الرحلة وتنسجم معه، فقد بَعُدت صاحبته وقومها، وحلّوا في موضعين متباعدين عن دياره، فاشتدّ لذلك شوقه وتضاعف حزنه، وصاحبته كنانية القبيلة يعمرية الحي، انقطعت عنه وجاورت غسان، ومع ذلك فإن ودّها باق في صدره لا يذهب ولا يتلاشى، فلما ارتحلوا – عن المرتبع الذي جمعهم– اتّبعهم بنظره حزناً لفراقهم حتى غابوا وراء الأنهار من جَنْب تَيْمر. وتراءى للشاعر – وهو في هذا الموقف المؤثر– مظهر الظعائن الجميل وهي تغادر الديار، فأرسل خياله في تصوير هذا المنظر تصويراً ينمّ عن الشعور بالجمال والإحساس بروعة الأشياء، فهوادجهن عالية مختلفة الألوان، تغذّ السير، فتبدو للرائي – من بعيد– حدائق دوم أو سفيناً مطلياً بالقار تدفعه الرياح، أو نخيلاً عاليات باسقات يغمر أسافلها الماء، من نخيل ابن يامِنٍ في هَجَر دون الصَّفا وبعد المُشَقَّر[٢]. ولكن هذه الظعائن الجميلة الموشاة بألوان من الصوف الأحمر والأصفر لا تشبه حدائق الدَّوْم أو السفين المطلي أو النخيل ذا الألوان المختلفة وحسب، وإنما تشبه تماثيل من تماثيل سَقْف[٣]، على قوائم مرمرية تكسو وادي الساجوم المزيد[٤] بنقش ملوّن، أو صور مزخرفة على جدر مطلية.

سَما لَك شوقٌ بعدما كان أَقصَرَا　　　وحَلَّت سُلَيمَى بطنَ قَوٍّ فَعرْعَرَا

---

(١) الطور الأول قبل مقتل أبيه، والثاني بعده.

(٢) قصران بناحية اليمامة.

(٣) سقف: موضع فيه صور.

(٤) المزيد: ذو الزَّبَد.

كِنانِيّــةٌ بانَــتْ وفــي الصَّــدْرِ وُدُّهــا   مجـــاوِرةً غسَّـــانَ والحـــيَّ يَعْمُـــرا
بِعَيْنَــيَّ ظُعْــنُ الحــيِّ لَمَّــا تَحَمَّلُــوا   لَدَى جانِبِ الأَفْلاجِ مِنْ جَنْبِ تيمرا
فشَــبَّهْتُهُمْ فــي الآلِ لَمَّــا تكمَّشــوا   حــــدائقَ دَوْمٍ أو سَــــفيناً مُقَيَّــــرا
أو المُكْرَعـاتِ مِـنْ نَخِيـلِ ابـن يـامِنٍ   دُوَيْـنَ الصَّـفا اللاَّئِـي يلِـينَ المشـقَّرا
كـأَنَّ دُمَـى سَقْفٍ علـى ظَهْرِ مَرْمَـرٍ   كَسَـا مُزْبِـدَ السَّـاجُومِ وَشْـياً مُصَـوَّرا

وأتبع الشاعر الحديث عن رحلة الظعائن بغزل حيي وقور على غير ما عرف عنه من الغزل الإباحي والخلاعة والمجون والتهتّك الخلقي الفاحش، ولعلّ انشغاله بما يقضّ عليه مضجعه، ويستحوذ على عقله صرفه عن التفكير بنوازع فؤاده وإرضاء شهواته، والتلذذ بها ولو على سبيل الذكرى. فالنسوة في الظعائن منعّمات مصونات يتحلين بالياقوت[١] وبقطع من الذهب المصوغ على هيئة فِقار الجرادة[٢]، ويتطيبن بالطيب الذكي الرائحة الذي انتشرت رائحته العطرة في أرجاء المكان، كما لو كان حقّه حميرية[٣] رميت بمسك إذفر[٤] قد فُتقت نافجتُه فانتشرت رائحته وقويت. وبضروب أخرى من الطيب والعطور كالبان واللبنى وأعواد من البخور الهندي كالألُوَّة والرَّند والكباء[٥]. هؤلاء النسوة ذهبن بقلبه، واستولين عليه، وعلقن بحبّ حبيب لا يستطعن الانفكاك عنه، وكانت سُليمى صاحبته تدَّعيه ثم

(١) انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٤٠-١٤١، الزينة في الشعر الجاهلي: التزيّن بالحلي: ١٤٩-١٥٠.
(٢) انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ١٣٧، ١٥٠ والحاشية رقم (٢)، الزينة في الشعر الجاهلي: التزين بالحلي: ١٥٧.
(٣) هي أداة أو وعاء لحفظ الطيب والحلي، وتكون من الخشب والعاج. انظر مجلس المرأة وزينتها في العصر الجاهلي: ٢٠٦-٢٠٧.
(٤) الإذفر: القوي الرائحة.
(٥) لمزيد من التفصيل في الحديث عن هذه الأنواع من الطيب والعطور، انظر المرجع السابق: ١٦٨-١٧٢، ١٧٧-١٧٨، ١٨١، ١٨٢، الزينة في الشعر الجاهلي: زينة الطيب والعطور: ٢١٠، ٢١١، ٢١٤ -٢٢٤، ٢٢٧-٢٢٨، ٢٥٠-٢٥١، ٢٥٧، ٢٦٠-٢٦٣.

فارقته وذهبت هي الأخرى بقلبه، وقطعت ما بينه وبينها من حبل الوصال، وكان هذا الحبيب لها فيما خلا من الدهر خليلاً، يختلس النظر إلى خبائها ذي الأستار الصفاق مخافة الرقباء، إذا فجأها فنظر إليها فَزِعَ قلبُه وخَفَق، كَفَزَع الثَّمِل إذا نظر إلى الخمر فاستفظعها ورهب منها مع محبته فيها وحرصه على التلذذ بالسُّكْر منها. وكانت فاترة نشوى، إذا قامت لأمر تمايلت متثنية تداري فؤادها لتشتدّ، وتحمل نفسها على التماسك، وتتكلف الجَلَد لئلا تنهار. ولقد تغيّر ودّها، فإن قطعت ما بينه وبينها لبعده عنها، ووصلت غيره، ومالت بهواها إلى آخر، فله العذر حينئذ أن يستبدل بها غيرها، وأن يميل بهواه إلى امرأة أخرى، فالجزاء من جنس العمل، وإنما يقول هذا عند خروجه إلى قيصر، ومفارقته أهله ودياره. وربما آثر الشاعر – في هذه الأبيات– "مزج ثنائية (الحرمان – الجمال) في تجربة من تجاربه؛ ليبرز بهذا المزج التقابل بينه وبين المرأة، فهو يتمناها من ناحية، لكنه – على غير المألوف– يهيّىء لفراقها من ناحية أخرى، وهذا التقابل يبدو جليّاً في تجربة مزدوجة بين سلمى وأسماء، حيث يستخلصهما من بين نسائه لهذه المغامرة المميزة"(١).

غَرائِرُ في كِنٍّ وصَوْنٍ ونَعْمَةٍ ... يُحَلَّيْنَ ياقوتاً وشَذْراً مُفَقَّرا
وريحَ سَناً في حُقَّةٍ حِمْيَرِيّةٍ ... تُخَصُّ بمَفْروكٍ من المسْكِ أَذْفَرا
وباناً وأُلْوِيّاً من الهنْد ذَاكِياً ... ورَنْداً ولُبْنَى والكِبَاءَ المقَتَّرا
غَلِقْنَ برَهْنٍ مِنْ حَبِيبٍ به ادَّعَتْ ... سُلَيْمى فأَمسَى حَبْلُها قد تَبَتَّرا
وكان لها في سالف الدهر خُلَّةً ... يُسارِقُ بالطَّرْفِ الخِباءَ المُسَتَّرَا
إذا نَالَ منها نَظْرَةً رِيعَ قَلْبُهُ ... كما ذَعَرَتْ كأْسُ الصَّبُوح المخمَّرَا
نزِيفٌ إذَا قامتْ لوَجْهٍ تمايلَتْ ... تُراشِي الفؤادَ الرَّخْصَ أَلاَّ تَخَتَّرا
أَأَسْماءُ أَمْسَى وُدُّها قد تَغَيَّرا ... سنُبْدِل إن أَبْدَلْتِ بالوُدِّ آخَرا

---
(١) قراءة ثانية في شعر امرىء القيس: ١٠٩.

وانتقل بعد ذلك إلى تذكر أهله الصالحين، وما هو عليه من سفر واغتراب، مسجّلاً في الأبيات التالية أحزانه وآلامه النفسية التي اعتورت فؤاده، ورافقته في مسيره إلى أرض الروم منذ أن فارق أهله ودياره، فهو عندما صار إلى بعض مواضع الشام إلى "خَمَلَى" و "أَوْجَر"[1] وقد بَعُد عن أهله وعن ديار محبوبته، تذكّرهم واشتاق إليهم، ولما دنا من "حَوْران" فبدت له في الآل[2] دون أسماء لم يرَ شيئاً يسرُّ به، إذ كان كل ما رآه جديداً عليه غريباً عنه، لا يصله به نسب ولا تشدُّه إليه عاطفة[3]، فكأن كل ما رآه غير مرئي لحقارته وقبحه في عينه، فلما جاوز حماة وشَيْزر تقطعت به أسباب الحاجة إلى مَنْ أحب يأساً من اللقاء، وشغلاً بما لقيه من الشدة والعناء. ولطول المسافة وبعد الديار كانوا يسيرون متعجلين، فقد أخذت القافلة تغذّ السير، وتجهد نفسها بسرعة فوق طاقتها، حتى ضجّت الإبل المسنّة من سرعتهم، فكان مَنْ تخلّف منهم لشيء أصابه لم يتربَّص عليه حتى يدركهم. ورغم الأهوال التي ألمَّت به، وما لقي من عناء السفر، وبُعْد الشُّقَّة[4] لم ينس نساءً في هوادج مرتفعة، جلّلت حمولتهن بالخَمْل، خضراء اللون كأثل وادي الأعراض، فارقته عند انقضاء المرتبع والرجوع إلى المياه، مررن "بيبشة" وخلفن "الغمير" قاصدات "غضور".

تَـذَكَّرْتُ أهْلــي الصــالِحِينَ وقـد أَتَـتْ   علـى خَمَلَـى خُـوصُ الرِّكـابِ وأَوْجَـرا
فلمّــا بَــدَتْ حَــوْرانُ فــي الآلِ دُونَهــا   نَظَـرْتَ فلَـمْ تَنْظُـرْ بعيْنَيْـكَ مَنْظَـرا

(١) موضعان قِبَل الشام.

(٢) الآل: السراب.

(٣) امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٥.

(٤) الشُّقَّة: بُعْد مسير إلى الأرض البعيدة.

تَقَطَّـــعَ أَسْـــبَابُ اللُّبانَـــةِ والهَـــوَى   عَشِـــيَّةَ جاوَزْنَـــا حَمـــاةَ وشَـــيْزَرا
بِسَـــيْرٍ يَضِـــجُّ العَـــوْدُ منـــه يَمُنُّـــهُ   أَخُو الجَهْدِ لا يُلْوِي عَلَى مَنْ تَعَذَّرَا
ولـــم يُنْسِـــنِي مـــا قَـــدْ لَقِيـــتُ ظَعائِنـــاً   وَخمْـــلاً لهـــا كـــالقَرِّ يومـــاً مُخَـــدَّرَا
كأَثْـــلٍ مـــن الأَعْـــرَاض مِـــنْ دون بِيْشَـــةٍ   ودُونَ الغُمَيْـــرِ عامِـــداتٍ لِغَضْـــوَرَا

وخرج من هذا إلى وصف ناقته الجَسْرة(١) الذَّمُول(٢) وإلى الفخر بنفسه، حتى إذا أرضى نفسه في وصفها بستة أبيات أشار إلى أنها تحمل على ظهرها فتًى لم تحمل الأرض مثله، وفاء بما عاهد، وصبراً على ما يجد. ويفخر بنفسه على بني أسد ويخوّفهم منه، فيذكر الأعمال التي قام بها للثأر لأبيه، فهو المُنْزِل الألوف من حصن ناعط بأرض همدان، فإذا أرادوا النجاة بأنفسهم فعليهم أن ينزلوا بما غَلُظ من الأرض وخشن، وأن يتحصّنوا بالجبال. ويزعم أنه لو شاء لغزاهم من أرض حمير بقومه وأصحابه، ولكنه استنجد بملك الروم، وطلب العَوْن منه، تشنيعاً عليهم، وإبلاغاً في نهكِهِم، وتبيين شرفه وفضله لمشاركة ملك الروم له.

فـدَعْ ذَا وسَـلِّ الهَـمَّ عَنْـكَ بجَسْـرَةٍ   ذَمُـــولٍ إذا صـــامَ النَّهـــارُ وهَجَّـــرَا

....

عليهـا فَتًـى لَـم تَحمِـل الأَرْضُ مِثْلَـهُ   أَبَـــرَّ بمِيثـــاقٍ وأَوْفَـــى وأَصْـــبَرَا
هـو المُنْـزِلُ الأُلاَّفِ مـن جَـوِّ نَـاعطٍ   بنِـي أَسَـدٍ حَزْنـاً مِـن الأَرضِ أَوْعَـرَا
ولو شاءَ كان الغَزْوُ مِنْ أرْضِ حِمْيَرٍ   ولكنَّـــه عَمْـــداً إلـــى الـــرُّومِ أَنْفَـــرَا

---

(١) الجَسْرة: الناقة النشيطة.
(٢) الذَّمول: التي تسير سير الذَّميل، وهو سير سريع.

ويرافقه في هذه الرحلة –كما أَخبرنا– عمرو بن قميئة، وكان شيخاً كبيراً[1]، وقد أحسَّ عمرو خلال هذه الرحلة الشاقة بقسوة الغربة، وعذاب الوحدة، ووحشة الدار، فعندما جاوز وصاحبه بلاد العرب إلى بلاد الروم، مخلِّفَيْن وراءهما أرضاً عزيزة وذكريات جميلة، وأيقن عمرو أنه صائر إلى قيصر لا محالة، حنَّ إلى بلاده فبكى، فيسلّيه امرؤ القيس عن البكاء، ويخفّف من آلامه وأحزانه بأن يصبر على ما يجد حتى يدركا ما يطلبان من المُلْك، بالوصول إلى قيصر والرجوع إلى قتال بني أسد، إلاَّ أن يحول الموت دون ذلك، فيكون لهما العذر إذ لم يقصِّرا في الطلب. ويطيب خاطره ويهدىء من روعه فيذكر له لئن استجاب له قيصر، ورجع من عنده بجيش عظيم يستعيد به ملكه، فإنه كفيل بأن يسير سيراً شديداً، يطوي الأرض طيّاً، فيبلغا ديارهما في زمن وجيز.

بَكَى صَاحِبي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَه	وأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بقَيْصَرَا
فقُلْتُ لَه لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنَّما	نُحاوِلُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا
وإِنِّي زَعِيمٌ إِنْ رَجَعْتُ مُمَلَّكاً	بسَيْرٍ تَرى منه الفُرانِقَ[2] أَزْوَرَا

ثم أعقب ذلك في وصف الطريق الذي سلكه، فهو طريق غير مسلوك ليس فيه عَلَم ولا منار فيهتدى به، إذا شمّته الإبل المسنّة رغت لبعده وما تلقى من مشقّته، على فرس قوي مقصوص الذنب استعمل من قبل في سير البريد، خميص البطن كذئب الغضا، ماض في الجري، يتحدر العرق من جوانبه لشدة السير ومشقّته، إذا حركه بالرَّكْض وبالزَّجْر من جانبيه كليهما تبختر في مشيه، ومال في أحد جانبيه، ثم حرّك فمه باللجام عبثاً ونشاطاً.

---

(١) الأغاني ١٨: ١٣٩، ١٤٤، وغيره.

(٢) الفرانق: الذي معه، دليل أو غيره.

فإذا اطمأن الشاعر إلى أنه خفف عن رفيقه ألم الغربة، وهوّن عليه بُعْد الشُّقَّة، واصل مسيره حتى إذا جهدا وشقَّ عليهما السير دعا امرؤ القيس الفرانق إلى الغناء والتطريب ليروّح عنهما، ويسلّيهما عن بعض ما يجدا من المشقّة والعناء، فأرنّ وهو على فرس قوي شديد، ليّن العروق والمفاصل، مقطوع الذنب.

علـــى لاَحِـــبٍ لا يُهْتَـــدَى بمَنـــارِهِ	إذا ســـافَهُ العَــوْدُ النَّبَـــاطِيُّ جَرْجَــرَا
عَلَـى كـلّ مَقْصُـوصِ الـذُّنَابَى مُعـاوِدٍ	بَرِيـدَ السُّـرَى باللَّيْـل مـن خَيْـلِ بَربـرا
أَقــبَّ كسِـــرْحانِ الْغَضَـــا مُتَمَطِّـــرٍ	تَـرَى المـاءَ مِـنْ أعْطافِـه قـد تَحَـدَّرَا
إذا زُعْتَـــهُ مِـــنْ جَانِبَيْـــهِ كِلَيْهِمَـــا	مَشَــى الهيْـدَبَى فــي دَفِّـه ثـمّ فَرْفَـرَا
إذا قلــــتُ رَوِّحْنــــا أَرَنَّ فُرانِـــقٌ	علــى جَلْعَـدٍ واهِــي الأَباجِـلِ أبْتَـرَا

ويواصل الشاعر سيره في الشام متنقّلا في قراها في مواضع كان فيها غريب اليد واللسان، إلى أن صار إلى بَعْلَبَكّ فأنكره أهلها، وكان أهل حمص أشدَّ إنكاراً له، وذلك لعدم معرفتهم به، وحينئذٍ أرسل خياله يرود آفاق الوطن فتذكّر الأحبة فأخذ يراقب هطول المطر ليعلم أين وقعه ومصبّه، طمعاً منه أن يكون في ديار مَنْ يُحِبُّ، فيشتفي بذلك، ولكن لا شيء يشفيه من الشوق إلى ابنة عفزر والحنين إليها. هي من المتحبّبات إلى أزواجهن اللائي لا تطمح أعينُهن إلى غيرهم تعفّفاً وحسن صحبة، ناعمة رقيقة لو مرّت نملة صغيرة فوق ثوبها لأثّرت في جلدها.

وليست ابنة عفزر المرأة الوحيدة – من بين النساء اللائي عرفهن– التي تذكَّرها والتي كانت تشدّه إلى وطنه، وإنما كان لصاحبتيه أمّ هاشم والبسباسة ابنة يشكر ماضٍ معه وذكرى، فهو يلوم نفسه إن مَضَتْ به الرحلة وأمسى بعيداً عنهما، نائياً عن ديارهما، لما يلقى من الوجد بهما والاشتياق إليهما.

لَقَــــدْ أَنْكَرَتْنـــــي بَعْلَبَـــــكُّ وأَهلُهــــا وَلابنُ جُرَيْجٍ في قُرَى حِمْصَ أَنكَرَا
نَشِـــيمُ بُـــروقَ المُـــزْنِ أَيـــنَ مَصـــابُه ولا شَـيءَ يَشْـفِي مِنْـكِ يابنَـةَ عَفْـزَرَا
مـن القاصِـرَاتِ الطَّـرْفِ لـو دَبَّ مُحْـوِلٌ مـن الـذَّرِّ فـوقَ الإِتْـبِ منهـا لأَثَّـرَا
لـــه الوَيْـــلُ إنْ أمْســـى ولا أُمُّ هاشـــمٍ قريـــبٌ ولا البَسْباسَـــةُ ابنـــةُ يَشْـــكُرا

ولم يزل امرؤ القيس كذلك ينتقل من بلد إلى آخر، حتى إذا أمضى خمس عشرة ليلة سيراً وراء الحِساء من أعمال قيصر، بدا له أن أمّ عمرو بن قميئة تبكي عليه لبعدها عنه وشوقها إليه، وما كان أصبرها قبل فراقها له(١)!

ويبدو أن امرأ القيس لم يلقَ في الديار الجديدة ما يسرّه ويقرّ عينه، فأخذ يشكو حظه من الدنيا، ويتألم لتغيّر الدهر له، فهو كلما لقي إنساناً ورجا منه حسن الصحبة خانه وتغيَّر عنه، وأخلف ظنّه، فانتقل إلى آخر واستبدل به غيره، ولكن الناس سواسية في هذا الخُلُق.

أرَى أُمَّ عَمْــرٍو دَمْعُهــا قــد تَحــدَّرا بكـاءً علـى عَمْرٍو ومـا كـان أصْـبَرا
إذا نحــن سِــرْنا خَمـسَ عَشْـرةَ لَيْلَــةً وَراءَ الحِســاءِ مــن مَـدَافِعِ قَيْصَــرا
إذا قلـتُ هـذا صــاحِبٌ قـد رَضِـيتُهُ وقَــرَّتْ بــه العَيْنــانِ بُــدِّلْتُ آخَــرَا
كـذَلِك جَـدِّي، مـا أُصـاحِبُ صـاحباً مـــن النَّـــاسِ إلاَّ خـــانَني وتَغَيَّـــرَا

ويختم الشاعر قصيدته مفتخراً بقومه في أصلهم البعيد، فقد كانوا قبل غزوة قرمل يتوارثون الغنى والمجد كابراً عن كابر، ولئن تراخى أصحابه عن اللقاء – في

(١) أو وما كان عمرو أصبر من أمه حين بكى لما رأى الدَّرْب دونه، بعيداً عن صحبه وأماكن لهوه.

أحد الأيام– فليس ذلك لجبن أدركهم، أو ضعف استولى عليهم، ولكنهم ذكروا المواطن والأهل، وحنّت نفوسهم إليها، فرجعوا عن العدوّ حرصاً على اللحاق بالأهل، ولتشفى النفوس بلقائهم. وما أكثر الأيام التي شهدها في "تأذِف"[1] و "طرطر" فكانت له فيها الظفر والغلبة، ولكن ليس يوم – في حياته – مثل يوم "قذاران" حيث كان ظفره في هذا اليوم أشدَّ ظفراً، وغلبته أقوى غلبة، وإن كان قد أصاب حاجته وأدرك طَلِبتَه، فقد كان وأصحابه فيه على حذر وقلّة طمأنينة كأنهم على قرن ظَبْي. ويزهو بعادة كانت موجودة عندهم أنهم كانوا يشربون حتى يُذْهبَ السكرُ عقولهم، ويحيّر أبصارهم فيحسبوا الخيل حولهم غنماً، والسُّود حمراً.

وكنَّــا أُناســاً قَبْــلَ غَــزْوَةِ قَرْمَــل ... وَرِثْنَــا الغِنَــى والمجـدَ أَكْبَـرَ أَكبـرَا

ومــا جَبُنَــتْ خَيْلــي ولكـنْ تـذكَّرَتْ ... مَرَابِطَهــا مــن بَــرْبَعِيصَ ومَيْسَــرَا

ألا رُبَّ يَــوْمٍ صَــالِحٍ قــد شَــهِدْتُهُ ... بِتَـأْذِفَ ذاتِ التَّـلِّ مِـنْ فَـوْقِ طَرْطَـرا

ولا مِثْــلَ يَــوْم فــي قُــذارَانَ ظِلْتُــهُ ... كـأَنِّي وأَصْـحابي علـى قَـرْنِ أَعْفَـرا

ونَشْـرَبُ حتـى نَحسِـبَ الخيـلَ حَوْلَنـا ... نِقـاداً وحتـى نحسِـبَ الجَـوْنَ أَشْـقَرا

إن انتقال الشاعر انتقالاً مفاجئاً من الحديث عن رحلته إلى قيصر، وعن المتاعب والأهوال التي واجهته في سفره هذا إلى الفخر بقومه، يجعلنا نشعر بوجود فجوة كبيرة بين الموضوعين تحول دون ترابطهما في المعنى والمضمون، وفي تسلسل الأحداث، إمّا لأن الشاعر لم يحسن الانتقال من موضوع إلى آخر، ولم يأتِ بأداة يربط بها بينهما ولو كانت محاولة متكلفة، وإما – وهو احتمال نذهب إليه – أن تكون أبيات بينهما قد ضاعت، ويقلّل من قيمة هذا الاحتمال أن أحداً من الرواة الثقات لم ينصّ على ذلك.

---

(١) في معجم ما استعجم: ٣٠٠ دون همز، موضع قِبل طَرْطَر.

ويبدو أن أخبار امرىء القيس مع قيصر كانت قليلة، أو أنه لم يسجّل في شعره ما دار بينه وبين الملك الرومي من أحاديث شتَّى عن منادمته له، وبيان منزلته عنده، أو عشقه لابنته، وقد نجد له العذر في عدم الاهتمام بتضمين هذه الأحداث في شعره وقتئذٍ، لأنه كان مشغولاً بإقناع قيصر بتقديم العون والمدد له على بني أسد قَتَلة أبيه، وربّما استغرق اقناعه وقتاً، لأن "النجدة التي طلبها امرؤ القيس كبيرة جداً، والجيس الرومي لم يكن مستعداً للقتال في الصحراء، ثم إن الغاية التي جاء من أجلها امرؤ القيس – وهي الأخذ بثأر رجل واحد– كانت بعيدة عن سياسة الروم ومألوفهم، فضلاً عن أن الامبراطورية الرومانية كانت مهدَّدة بهجمات البرابرة، ومن ثم فالامبراطورية كانت في حاجة إلى الدفاع عن امبراطوريتها بنفسها"(1). حتى هذه الحادثة –التي هي هدف الرحلة– لم يذكرها امرؤ القيس في شعره إلاّ ذكراً يسيراً، كما هو الحال في هذه القصيدة.

والذي يبدو لي أن امرأ القيس لم يكن مَعْنياً –عندما رحل إلى القسطنطينية– في الأخذ بثأر أبيه، وأن الدافع إلى الرحلة كما تناقله الرواة والإخباريون قد يكون وهماً وقع فيه القدماء، وتبعهم المحدثون على ذلك، لأنه –في الحقيقة– ثأر لأبيه، وقتل أناساً كثيرين وهو في داخل الجزيرة العربية، واحتمال أن يرحل إلى الامبراطور البيزنطي من أجل هدف كهذا يبدو أمراً مستهجناً حقّاً. والواقع أن امرأ القيس كان يسعى لاستعادة سلطانه وإحياء عرش أبيه وأجداده، بحيث يصبح ملكاً موفور الجانب، مسموع الكلمة، في منطقة تضمّ العديد من القبائل العربية، ويذلّ خصمه المنذر بن ماء السماء(2)، وقد صرح بهدفه هذا في قوله لرفيقه:

---

(1) العرب قبل الإسلام لحسين الشيخ: ١٧١.

(2) انظر في ذلك امرؤ القيس حياته وشعره: ٩١، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة: ١١، امرؤ القيس الملك الضليل: ٤٤، أمير الشعر في العصر القديم: ٢٧٣، الشوامخ امرؤ القيس: ١٦، الملك الضليل امرؤ القيس: ١٤٦.

فقلتُ لـه: لا تَبْكِ عينُك إنما نحاولُ مُلْكاً، أو نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

والقصيدة الثانية التي تتصل برحلة امرىء القيس إلى قيصر هي القصيدة الثالثة عشرة في الديوان(١)، وهي أقصر من الأولى ومن التي تليها، عدد أبياتها أربعة عشر بيتاً، ويبدو منها أنه قالها لما شارف على أنقرة في طريق عودته إلى دياره. ويذكر الرواة في مناسبتها أن قيصر أرسل معه جيشاً كثيفاً، فلما قفل به راجعاً إلى دياره، وَشَى به الطمَّاح عنده، فأرسل قيصر في طلبه رسولاً، فأدركه دون أنقرة بيوم، ومعه حلَّة مسمومة منسوجة بالذهب، فلبسها في يوم صائف فرحاً بها، فتناثر لحمه، وتفطَّر جسده، فسمِّي لذلك ذا القروح، فقال هذه القصيدة يصف ما به، على أن مضمونها يوحي بغير ذلك، ويناقض هذا الخبر مناقضة واضحة.

بدأ القصيدة بمقدمة طللية قصيرة لا تتجاوز ثلاثة أبيات، يدعو فيها صاحبيه إلى النزول على الطلل مساعدة له حتى يسأله عن أهله، وقد ناداه وتحدّث إليه فلم يجبه، وكأنه ينادي أو يكلم أخرساً، خلت الديار من أهلها فلا أنيس بها يستقرّ عندهم، ويقيم فيهم، ولو أن أهل الدار فيها كما عهدهم زمن

(١) ص: ١٠٥-١٠٨، وهي الثالثة عشرة في مخطوطة الأعلم الشنتمري، والرابعة عشرة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضّل)، والتاسعة عشرة في مخطوطة السكري، والرابعة عشرة في مخطوطة البطليوسي، والسادسة والثلاثون في مخطوطة ابن النحاس، والثالثة والأربعون في مخطوطة أبي سهل. وانظر الشعر والشعراء: ٦٢، تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٠، الأغاني ٩: ١٠٠، الكامل في التاريخ ١: ٥١٩، نشوة الطرب ١: ٢٥٢، المختصر في أخبار البشر ١: ٧٥، شعراء النصرانية ١: ٣٣-٣٤، امرؤ القيس حياته وشعره: ١٠٠-١٠١، امرؤ القيس الملك الضليل: ١٣٦-١٣٨، أمير الشعر في العصر القديم: ٣١٢-٣١٤، الشوامخ امرؤ القيس: ١٨-٢٠ قراءة ثانية في شعر امرىء القيس: ٦٣، ٦٤، ١٣١، ١٤٢.

المرتبع لنزل فيهم ظهراً واستراح عندهم ليلاً. أنكره أهلها لمَّا أتاها فلم يجد فيها ما يوافقه ويسرّ عينه، وهو الذي عرفوه وصحبوه أياماً ارتبعوا فيها غَوْلاً وألعس.

ألِمَّا على الرَّبْعِ القَدِيمِ بِعَسْعَسَا ... كأَنِّي أُنادِي أَو أُكَلِّمُ أَخْرَسا
فلو أنَّ أَهْلَ الدارِ فيها كعَهدِنَا ... وجدتُ مَقيلاً عندهمْ ومُعَرَّسَا
فلا تُنكِروني إنَّني أنَا ذاكُمُ ... لَيالِيَ حَلَّ الحَيُّ غَوْلاً فَأَلْعَسَا

والمقدّمة ذات صلة بموضوع القصيدة، أراد الشاعر فيها أن يبيّن أنه أصبح بعيداً عن دياره، غريباً عن أهله وقومه، في مواضع لا يعرفه أحد، ولا يعرفهم، ولا يجد فيهم من يواسيه، ويخفف من آلامه وأوجاعه، ولذلك كان انتقاله إلى ذكر مرضه انتقالاً طبيعياً مهّدت له هذه المقدمة، فهو يتحدث عن داء فيه منها يمنعه النوم، ويدفعه إلى السهر، فلا ينام منه شيئاً إلاَّ أن يُكِبّ[1] فينعس. ومع ظلمة الليل يتذكّر داءه القديم ويخشى أن يصاب بنكسة[2] يعاوده فيها هذا المرض، ويبدو أن امرأ القيس أصيب في هذه الديار بداء ذكر شيئاً من أعراضه – فيما يلي من أبيات– يختلف عن دائه القديم، الذي عاوده كذكرى مع الليل، وهو الوقت الذي ينفرد فيه الإنسان بنفسه، ويتذكر همومه وآلامه. ويظهر أن في هذين البيتين فصلاً بين نوعين من الداء الذي أصيب به شاعرنا، داء جديد أصيب به في ديار الروم، وداء قديم أصيب به في دياره، وأن الداء الجديد كان وراء موته، ولكن لا مانع من التأويل أنه بعد أن تردّت صحته وصار إلى حالة من البؤس والعجز عاوده مرضه القديم فاجتمع الاثنان، فكانت نهايته بهما.

---

(١) الإكباب: ملازمة الشيء مع انعطافٍ عليه وانحناء.
(٢) نُكِسَ الرجل: إذا ضعف وعجز.

فإمّـــا تَرَيْنِـــي لا أُغمّـــضُ ســاعةً	مِــن اللَّيــلِ إلا أَن أُكِــبَّ فأَنعَسَــا
تـــأوَّبَنِي دائـــي القـــديمُ فَغَلَّسَـــا	أُحـــاذرُ أن يرتـــدَّ دائـــي فأُنكسَـــا

ومع إحساس الشاعر بالعجز والضعف يفرّج عن نفسه ويخفّف من مصابه باستعادة ذكرياته أيام الشباب والقوة، فيتبادر إلى ذهنه الأعمال التي قام بها وهو سليم معافى، فما أكثر ما أنجد مكروباً، عطف من ورائه وطاعن عنه أصحاب الخيل – وهو هارب منهزم– حتى أفلت منهم، وما أكثر الأيام التي كان يُعْنى فيها بنفسه مرجِّلاً شعره، فيبدو شاباً ناعماً حبيباً إلى الصبايا، يشدّهن صوته، فيرجعن إليه حبّاً وكلفاً به، كما ترجع النوق الفتية إلى الفحل. ولكنه اليوم غيره بالأمس فقد قلّ ماله وشاب شعره وتقوّس ظهره، وهذه أمارات الكِبَر وعلامات الهرم تنفّر النساء منه، ومن أي إنسان، على أن امرأ القيس إذا لجأ إلى التعميم كان كلامه حِكَماً وأمثالاً[١].

فَيَـــا رُبَّ مَكـــروبٍ كـــررتُ وراءَهُ	وطاعنـتُ عنـه الخيـلَ حتـى تنفّسَـا
ويـــا ربَّ يَـــوْمٍ قـــد أَرُوحُ مـــرجَّلاً	حَبِيبـاً إلـى البِيضِ الكَواعِـبِ أَمْلَسَـا
يَـرِعْنَ إلــى صَـوْتي إذا مــا سَـمِعْنَه	كما تَرْعَوِي عِيطٌ إلى صَوْتِ أَعْيَسا
أرَاهُــنَّ لا يُحْبِــبْنَ مَــنْ قَــلَّ مالُــهُ	ولا مَـنْ رَأَيْـنَ الشَّـيْبَ فيـه وقَوَّسَـا

ويعود الشاعر بعد ذلك إلى مرضه، ويبدو أنه كان يأمل البرء منه ولكنه طال واشتدّ عليه في تلك الآونة، فهو لا يخشى أن تقسو عليه الحياة، حتى ولو

---

(١) الشوامخ امرؤ القيس: ٢٠.

ضعف وشَقَّ[١] عليه المرض بحيث يعجز معه عن ارتداء ثيابه بنفسه، وأسوأ ما يمرّ عليه في مرضه أن نفسه لا تخرج مرَّة واحدة، ولكنها تموت شيئاً بعد شيء، وكأنها مؤلّفة من عدة أنفس تموت الواحدة منها تلو الأخرى، وفي ذلك أبرع تصوير لطول عذاب النفس في مرض الموت[٢]. لقد بدّل بصحته مرضاً، وتناثرت القروح على جسده، ولعل ما به من شدة الحال والبلاء عوض من الموت أو بدلٌ منه. انتقلت عدوى هذا المرض إليه من رجل يدعى الطمَّاح، كان أصيب بداء تأثر به امرؤ القيس أشدَّ تأثر حتى قُضي عليه.

ورغم ما لحق به من عناء السفر، وقسوة المرض، وتغيّر الحال، فإنه يتعلق بالأمل في أن يعقب الشدّة رخاء، والفقر غنًى، والشيب عُمْرٌ ومستمتع.

ومـا خِفْـتُ تَبْـرِيحَ الحيـاةِ كمـا أَرَى	تَضِـيقُ ذِراعـي أنْ أَقـومَ فأَلبَسَـا
فلـو أَنَّهـا نفـسٌ تمُـوتُ جَمِيعـةً	ولكنَّهـا نَفـسٌ تَسـاقَطُ أَنفُسَـا
وبُـدِّلْتُ قَرْحـاً دامِيـاً بعـد صِـحَّةٍ	لعـلَّ مَنايانَـا تحـوَّلْنَ أَبؤُسَـا
لقد طَمَـحَ الطَّمّـاحُ مـن بُعْدِ أَرضِـهِ	لِيُلْبِسَـني مـن دائِـهِ مـا تَلَبَّسـا
أَلا إنَّ بَعْـدَ العُـدْمِ للمَـرْءِ قِنْـوةً	وبعـد المَشـيِبِ طُـولُ عُمْـرٍ ومَلبَسَـا

والقصيدة الثالثة التي تتصل برحلة امرىء القيس هي القصيدة التاسعة في الديوان[٣]، وهي أقصر من الأولى وأطول من الثانية، عدد أبياتها سبعة عشر بيتاً،

(١) أي ثَقُل عليه.

(٢) المرجع السابق: ٢٠.

(٣) ص: ٨٩-٩٣، وهي التاسعة في مخطوطة الأعلم الشنتمري، والثامنة في مخطوطة الطوسي (فيما قرأه الطوسي على ابن الأعرابي من رواية المفضّل)، والحادية عشرة في مخطوطة السكري، والعاشرة في مخطوطة البطليوسي، والثانية والخمسون في مخطوطة ابن النحاس، والثالثة والثلاثون في مخطوطة أبي سهل.

ويبدو منها أنه قالها في أثناء عودته إلى بلاده لمَّا ثقل واشتدّ عليه المرض[١]. بدأها بمقدمة طللية قصيرة يدعو فيها رفيقيه إلى الوقوف في ديار محبوبته، والبكاء عليها، والتعرّف إليها، فقد تغيّرت معالمها ودرست آثارها. تعاورتها السنون، وبَعُد أهلها بالأنيس حتى تغيَّرت رسومها وعفت آياتها، فأصبحت كالكتاب خفاءً ودقّة. تذكّره – هذه الرسوم– بالحي مجتمعين زمن المرتبع، وتهيّج بقايا ألم في الفؤاد لم يستطع إخفاءه، فتسيل دموعه سيلاناً يبلّ رداءه، كما يسيل الماء من مزادة[٢] ذات خروق ورُقَع.

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبيبٍ وعِرْفانِ ... وَرَسْمٍ عَفَتْ آياتُه منذُ أَزْمَانِ
أتَتْ حِجَجٌ بَعدِي عليها فأصبحتْ ... كخطِّ زَبُورٍ في مصاحفِ رُهْبَانِ
ذَكَرْتُ بها الحَيَّ الجميعَ فهيَّجتْ ... عَقابِيلَ سُقْمٍ من ضَمِيرٍ وأشْجانِ
فسحَّتْ دُمُوعِي في الرِّدَاء كأنَّها ... كُلًى مِنْ شَعِيبٍ ذات سَحٍّ وَتَهْتانِ

وانتقل من هذه المقدّمة إلى وصف حاله مريضاً يحمل على سرير، يحمله جابر بن حُنَيّ التغلبي[٣] في رِحالتِه[٤]، قد ذوى جسمه، واتسعت عليه ثيابه، فهي تضطرب لاستقبالها الريح وتحريكها لها. وفي مثل هذه الحالة من الضعف والعجز يفسح لخياله مجالاً للعودة به إلى الماضي، يسترجع به ذكرياته، وأيام شبابه

(١) شعراء النصرانية ١: ٦٦ ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي في مناسبة القصيدة: أنه أنشدها في طريقه إلى قيصر وكان أصابه مرض، وذكر الطاهر أحمد مكي (امرؤ القيس حياته وشعره: ٩٩) أنه يبدو من جوّ هذه القصيدة أنها كانت تالية في الخَلْق للقصيدة الأولى.
(٢) قربة الماء.
(٣) في ديوان امرىء القيس: ٩٠ كان جابر بن حُنَيّ وعمرو بن قميئة يحملانه، وفي الشعر والشعراء: ٥٣ أن جابر بن حُنَيّ التغلبي هو الذي كان يحمله.
(٤) الرِّحالة: خشبات كان يُحْمَل عليها امرؤ القيس وكان مريضاً، وهي الحَرَج.

وفتوّته، فكم محصور رجع إليه وقد أحاط به العدو، وقاتل عنه واستنقذه، وأسير فداه بماله فحُلّ وثاقه وسرّح، ولو كان أسيره منَّ عليه وأطلقه، وأصدقاء له أيقظهم مبكرين، فقاموا وهم بين عاثٍ[١] ونشوان[٢]، وأرض واسعة تتخرَّق فيها الرياح قطعها على ناقة قوية الخلق، لينة المشي، مِذْعان[٣]، وسهول أصابتها سحب قوية، شديدة الصوت، فأعطت نبتاً مختلف الألوان كألوان الفنا[٤]، هبطها على فرس ضخم كهيكل النصارى، يعطيك ما عنده من الجري قبل أن تُكلِّفَه ذلك وتسأله إياه.

فإمّــا تَرَيْنــي فــي رِحالَــةِ جَــابِرٍ ... علــى حَــرَجٍ كــالقَرِّ تَخفِـقُ أكْفَـاني
فيــا رُبَّ مَكْــروبٍ كَــرَرْتُ وراءَه ... وعــانٍ فكَكْـتُ الغُـلَّ عنــه فَفَـدّاني
وفِتْيــانِ صِــدْقٍ بَعَثْــتُ بسُــحْرَةٍ ... فقـاموا جميعـاً بـين عـاثٍ ونَشْـوَانِ
وخَــرْقٍ بَعيــدٍ قــد قَطَعْـتُ نِياطَــهُ ... على ذاتِ لَوْثٍ سَهْوَةِ المَشْيِ مِذْعَانِ
وغَيْـثٍ كــألْوانِ الفَنَــا قــد هَبَطْتُــه ... تعــاوَرَ فيــه كــلُّ أوْطَـفَ حَنَّــانِ
علــى هَيْكَـلٍ يُعطيـكَ قبـلَ سُـؤَالِهِ ... أفــانينَ جَــرْيٍ غَيــرَ كَــزٍّ ولا وانِ

ثم يأخذ في وصف الحصان – إلى نهاية القصيدة– بأبيات لا تعكس من واقع الرحلة شيئاً، ولا تمت إليها بصلة[٥].

"يتبع في القسم الثاني"

---

(١) العاثي: المتناول للشيء، وكثر ذلك في كلامهم حتى استعملوه في الفساد، وأراد أنه لمَّا أثارهم من نومهم تناول هذا ثوبه ليلبسه، أو ناوَل غيره وهو كالسكران من النُّعاس.

(٢) نشوان: سكران.

(٣) المِذْعان: المذلَّلة المطاوِعة.

(٤) الفنا: عنب الثعلب، وقيل: هو نبت يشبهه.

(٥) انظر امرؤ القيس حياته وشعره: ١٠٠.